الفصل الثالث والثلاثون

الطريق الساحلي (محافظة القنفذة)

كان الوقت متأخراً في الصباح عندما قمنا بزيارة مقر سكن الأمير لتناول طعام الإفطار. غير أن ارتياحي لهذا قد تكافأ مع اكتشافي بأننا لن نكون مستعدين لمواصلة رحلتنا. دار جدل كبير حول مساعي كل من يهمهم الأمر للحصول على الحمير، والجمال والمرشدين.

لعل مضيفينا يرغبون أن نمكث عندهم حتى نتناول وجبة الغداء، غير أنني قاومت كل محاولة تؤدي إلى تأخيرنا، وعند الساعة الحادية عشرة والربع، وبعد أن مثل أمامي المرشدان اللذان أوصى عليهما الأمير نفسه بأنهما كاملا العلم بالمواقع، وبعض الحمير التي يفطّر منظرها القلب إلى درجة بعيدة باعتبار طول الرحلة التي تنتظرها، ركبت على أحد الحمير، وتحركنا وأنا أرفع يدي بالوداع والشكر الجزيل للأمير وحاشيته المجتمعة. سيتبعني الموكب حينما يجهز، كما أن عملي في الطريق سيعطلني بما فيه الكفاية ليجعلهم يلحقون بي ويسبقونني.

اكتشفت سريعاً أن مرشديّ الجديدين العالمين ببواطن الأمور يجهلان كل شيء عن البلاد من حولنا. لقد عرفوا الطريق، هذه حقيقة، غير أن الحمير قد عرفت ذلك أيضاً، ويمكنها أن تقودنا عليه بمجرد أن تلتقط مفهوم السير إلى الأمام بدلاً من توقف في مراعي بلادها. لقد نثرت أعواد الدخن فوق السبخة المبللة فيما يلي حدود المنطقة لكي يصبح الطريق أقل خطورة للحركة. عبرنا آخر عشة تابعة

للقحمة خلال خمس دقائق داخل بهو طوله ٥٠ ياردة من البحر وحزام النخيل، ثم اتجهنا سريعاً ناحية الشمال الغربي من حول طرف الميناء، نسير في اتجاه قمة قرين فيما يلي وادي نجلة. عبرنا ذراعين ضحلين ممتدين من البحر إلى الأرض على سهل السبخة وكنا نمر على مسافة ٣٠٠ ياردة من قرية الحرف الصغيرة، وقد امتدا من قاعدة وسم مسافة إلى الداخل في اتجاه مخروطي أسلة ومحرق. كانت وسم تبعد على مسافة ميل ونصف الميل إلى يسارنا مع حزام من المانجروف على الجانب القريب على امتداد الطرف الغربي للميناء. تقع مزارع نخيل خشفة على بعد ميل واحد إلى يميننا فوق وادي نجلة الذي يتوزع مجراه فوق سهل السبخة ولم نعبره بالفعل.

سرنا على حافة حقل الحمم البركانية بعد أن عبرنا السبخة، ويقع البحر وغابات المانجروف على مسافة ميل واحد إلى يسارنا عبر الساحل السبخي. يمتد وادي شقيق على بعد مسافة قليلة عبر ممر في وادٍ سبخي ضحل واسع حيث أصبحت غابات المانجروف غابات حقيقية تلاحقت مع الطريق، بينما تباعدت الحمم البركانية. انتشرت في وادي الشقيق أشجار الدوم في كلا مجريه وكنا نستطع رؤية وادي ذهبان قليلاً وراء المجرى الثاني وقراه الصغيرة المبعثرة وأراضيه الغنية بنخيل التمور. كانت بعض مزارع النخيل ممتازة بدرجة باهرة كما لحظتها حينما وصلنا إلى الوادي وتوقفنا لإجراء مسح عام للمنظر بجوار قرية الحباك الصغيرة عند النهاية مع اتجاه الوادي لمزارع النخيل والمحاصيل. تقع قرية طرق الأكبر على مسافة ميل واحد تجاه أعلى الوادي بين مزارع نخيل كثيفة، بينما يمكن اعتبار مجموعة صغيرة من عشش مبنية من كتل الحمم البركانية عند طرف الحرة على الجانب الأيمن للوادي من ضمن مكونات الواحة. تسمى هذه القرية قرية الشيخ، ولا يبدو أنها مأهولة، ذلك

لأنها تستخدم فقط كموقع لنوم المستأجرين أثناء عمليات الزراعة والحصاد الخاصة بالدخن، والذي كانت مساحة زراعته واسعة في كل من المساحات المتناثرة حول الوادي، وخاصة فوق الأراضي المرتفعة على جانبيه حيث تكون الزراعة محمية بالحواجز العالية ضد كل من السيول ومدّ البحر.

لقد أشرت إلى امتياز تمور ذهبان محلياً على امتداد هذا الشريط من الساحل. لا بد أن يكون المحصول السنوي كبيراً نسبياً كما كانت المساحة المخصصة لزراعة الدخن مثيرة للدهشة، بل المدهش فوق كل هذا أن كل الوادي الذي يبدو وكأنه منخفض ضحل بدلاً عن وادٍ وذلك لأنني لم أجد ما يدل على وجود مجرى فعلي. كان الوادي تحت صورة من صور الزراعة. كما كان يحتوي على آبار عديدة، غير أن أشجار النخيل تحتاج للري في حداثتها. حتى إذا ثبتت أشجار النخيل فإن عروقها تضرب إلى الأعماق إلى النطاق المائي الذي يكون عند عمق ١٠ أو ١٢ قدماً تحت السطح في كل هذه المنطقة المزروعة. ربما كان هذا هو سر ازدهار زراعة ذهبان، ذلك لأن السيول نادرة هنا.

يمثل آل ذهبان تجمعات خارجية من آل بني هلال التابعين للبرك، وقد رأينا ربوتهم وقلعتهم ناحية الشمال الغربي من موقعنا قبل أن نخرج من آخر حقول الدخن فيما يلي الوادي. تتمتع كل من البرك وذهبان -بالرغم من أنهما متضمنتين داخل محافظة القنفذة فيما يخص الأغراض الأميرية الخاصة بخزانة الدولة وغيرها- بدرجة من الاستقلالية المحلية كجيب قبلي تحت سيطرة رؤساء بني هلال في البرك. توجد غابة طرفاء قصيرة النمو وغطاء نباتي آخر في المسافات بين مزارع النخيل، بينما كانت الخلفية العامة للقرية من حقول حمم بركانية كئيبة، تنحدر إلى الخلف إلى مخاريط عديدة وفوهات براكين وتشاهد من ورائها من القحمة

الجبال العالية. قيل لي إن أحد هذه الجبال يسمى زرقان. لم أشاهد حتى الآن الطيور النموذجية لجنوب تهامة وكنت أعجب لأننا لم نكن قد خرجنا تماماً من نطاق تواجدها. لقد كانت الإجابة عن هذا السؤال جزئية، إذ ظهر طائر الشقراق الحبشي داخل حقول الدخن، لا بد أن يكون هنالك الكثير منه غير أنني لم أر غيره.

استمر سفرنا، باستثناء التوقفات، حوالي ثلاث ساعات ونصف الساعة، عندما قررنا التوقف لأداء صلاة العصر، والقيام بمسح عام عند الساعة ٤,٢٠ لسهل ناعم من دبال وأصداف إلى مسافة خمسمئة ياردة من ساحل البحر. تقع جزيرة الجبل فيما يلي هذا، وتنفصل عن الأرض الرئيسة بالمجرى الرئيس مسافة ثلاثمئة ياردة، وهي مسطحة النهايتين، وترتفع في الوسط إلى مخروط لطيف يبدو أنه بركاني وكانت بعض نباتات خزامى البحر تتخلل الساحل بينما كانت صفحة الطريق على اليمين عبارة عن حاجز صلب من الحمم البركانية مع العديد من المخاريط التي ترتفع إلى مجال الرؤيا ونحن نسير شمالاً.

دخلنا إلى أرض مسطحة تكسوها جلاميد ضخمة من الكتل البركانية عدا ممر ضيق تم كشفه لحركة السير، وذلك بعد أن طال انتظارنا لقافلة العفش التي لم تظهر في الأفق، ويسمح الطريق لحركة السيارات أيضاً. عبرنا فيما يلي هذا إلى فم وادي موضية الذي يُوجد على جانبه البعيد لسان بحري عبرناه ويقع فوق طريق مرتفع من صخور الحمم البركانية. واجهنا على الفور وادي الداهن وفمه الواسع الذي يندمج مع مجرى موضية ويغطيه أيضاً ذراع من البحر ودرنا حوله بجوار مجموعة صغيرة من أشجار النخيل. لا بد وأن يكون عرض هذا الوادي المزدوج الفم حوالي ميل واحد وكان سراً عليَّ أن أدرك أن السيارات قد عبرت هذه

المواقع. سارت رحلتنا الآن فوق شريط من السبخة على امتداد حافة رف منخفض من حمم بركانية متشابكة وشعاب مرجانية على يميننا. كانت السبخة لزجة جداً في بعض أجزائها، غير أننا وصلنا إلى فم وادي اللصيب دون حوادث.

لقد سرنا مدة ساعة أخرى وكادت الشمس أن تغرب، ولم نر أثراً لرفاقنا الذين نتوقع لحاقهم بنا. لذا فقد قررت أن نتوقف لقضاء الليلة فوق كتل بجوار مجموعة من أشجار النخيل تسمى «نخل زايد» على الجانب الأيسر للوادي، الذي امتلأ جانبه الأسفل بلسان من البحر. أزعجت حركتنا طائر بجع منعزلاً وهو يصطاد في موقع صيده المسائي، بينما طار من أشجار النخيل زوج من طيور الغداف كانت قد قررت مثلنا أن تقضي الليلة هنا قبل أن نقدم نحن، وقد رافق طيرانها احتجاج بصوت أجش، لتهبط فوق غابة مانجروف على جزيرة أخرى مسطحة وطويلة على بعد ميل ونصف الميل من الساحل. وصل قطار عفشنا أخيراً بعد نصف ساعة من استقرارنا في هذا الموقع، وتناولنا جميعاً وجبة العشاء المكونة من اللحم المقلي مع شرائح أناناس كحلوى. كانت الليلة ذات سحب وكانت ممطرة وقد لاحظت للمرة الثانية الغياب التام للحشرات برغم سطوع ضوء مصباحي. لم يكن هنالك ندى خلال الليل غير أن الجو كان رطباً لقرب المكان من البحر. كان المد ممتداً إلى الوادي في المساء، غير أنني لاحظته ينحسر بسرعة، وعند حلول الصباح كان اللسان المائي مكشوفاً، إلاَّ أن الموقع كان مبتلاً يصعب اختراقه إلاَّ بتحول خفيف مع الوادي لاختيار مجراه الحصبائي فيما يلي علامة أقصر موقع له.

أمضينا فقط ساعتين في معسكر البرك وكانت المسيرة إلى هنا فوق طريق يجري على ساحل ضيق وكان البحر يبعد عنا بنفس بعد الحمم البركانية منا.

كانت الشعاب المرجانية مختلطة مع الحمم البركانية أو كانت الحمم البركانية تعلوها، وقد عبرنا على فترات أفواه عدد من المسايل الثانوية التي تنحدر من حقل الحمم البركانية.

سرت على قدمي إلى ناحية أول هذه المسايل، ويسمى وادي المطلاه وقليلاً إلى ما يليه. كان المسيل التالي يسمى وادي المرّة والذي اخترقت طريقنا فيه مزرعة نخيل صغيرة تابعة لقرية مخمان الصغيرة الشبيهة أعشاشها بخلايا النحل، وتقف على الجانب الأيمن بجوار البحر، الذي كان يبعد حوالي خمسمئة ياردة على يسارنا. توجد هنا حقول قليلة لدخن نامٍ حديثاً، والتي فيما يليها يخترق الطريق حافة حقل للحمم البركانية وقد شُقَّ فوقه طريق سيارات يقع بيننا وبين البحر. أوصلنا هذا الطريق إلى مسيل وادي منيخر الضيق الذي كان فمه يبعد عنا مسافة مئتي ياردة إلى يسارنا، وقد سده حزام غابة مانجروف. وصلت الحمم البركانية فيما يلي هذا إلى حافة البحر وبالفعل أصبحت الشعاب المرجانية من فوق ومن تحت الجلاميد البركانية وفي فوضى شديدة، بينما قبل أن نصل إلى البرك كانت الحمم البركانية، ممتدة عبر طريقنا في لسان طويل ضيق يصل إلى البحر. مررنا بالقرب من هذا الموقع على المقبرة المحلية فوق مساحة أرض رملية على حافة الحمم البركانية، ودخلنا بعد دقيقتين قرية البرك.

يتكون جزؤها الرئيس من حوالي مئة من العشش التي تشبه خلايا النحل، إلى جانب البناء المركزي للحكومة بلونه الأبيض، ويقع في وسطها عدد من المنازل المبنية البيضاء من حولها. يقف هذا القسم من القرية فوق سلسلة حمم بركانية منخفضة تطل على البحر، وعلى حافتها حقول قليلة تم إعدادها للزراعة ولم تزرع حديثاً. يقع قسم آخر، وهو قرية صغيرة تشتمل على بعض المباني المطلاة بالجبس عند سفح

ربوة على يميننا. كان هنالك -إلى جانب هذين القسمين للقرية- القلعة التي كنا قد رأيناها من ذهبان، تقف بارزة فوق قمة ربوة منخفضة. يقع خليج خور البرك على يسار القرية، وهو مرسى طويل محمي أكثر منه ميناء، وبه سبخة عريضة تنحني على الجانب البعيد ناحية المدخل العريض.

يدخل مجرى وادي حلي إلى هذا الميناء، وقد وردت الإشارة إليه بأنه يشترك في مستجمع الماء مع وادي ريم، التابع للشقيق، وقد اكتسب اسمه هذا بسبب احتوائه على كمية وافرة من المياه العذبة قريباً من السطح. تحف أشجار النخيل هذا المجرى مسافة ستمئة أو سبعمئة ياردة من الميناء، قليلاً إلى الداخل من السور القديم، الذي يعود تاريخه إلى ٢٠٠ أو ٣٠٠ سنة[1]، والذي كان يحمي هذا الموقع المحلي المهم ضد الأعداء. يجري هذا مسافة ألف ياردة ناحية الشرق من الساحل على امتداد الجانب الأيسر لوادي حلي ثم يتجه جنوباً، مع تتابع أبراج على مسافات على امتداد سلسلة منخفضة تعبر من خلف القرية إلى حيث القلعة القديمة ثم إلى أسفل إلى البحر عند الموقع الذي كنا قد عبرناه عند عنق اللسان. وبذلك يؤمن حماية تامة للقرية من جانب اليابسة. يمر الطريق إلى القنفذة خلال هذا الجدار عن طريق ما لابد أن يكون بوابة عظيمة على حافة الوادي، غير أن القليل قد تبقى منها عدا الركام الذي بنيت منه. كانت البرك تزار من حين لآخر بالبواخر الصغيرة التي تتحرك على امتداد الساحل، غير أن مرساها لا يصلح لجعلها ميناءً منتظماً يتجه إليه، كما كانت تجارتها غير مهمة مقارنة مع القحمة قبل تدميرها بالتعريفة الجديدة.

(١) الصحيح وبناءً على المصادر التاريخية فإن بناء السور كان في أوائل عام ٦٢٩هـ، ورمم في عام ٧٠٤هـ. (المراجعون).

لم يكن مرعي -شيخ قبيلة بني هلال- موجوداً في مسكنه عندما مررنا بقرية البرك، ذلك لأنه قد قام بإرسال زوجاته الثلاث اللاتي كنَّ يعشن معه في القرية إلى أداء الحج ضمن مجموعة محلية من ٣٢ شخصاً وعدد مماثل من الجمال. ذهب إلى الجبال ليعزي نفسه بغيابهن وذلك بقضاء الفترة مع زوجته الرابعة، وهي شابة تفضل الحياة في الصحراء مع قبيلتها على بهرجة جمال الحضارة. أشرف على الترحيب بنا وكيله، وهو مثال جيد للشاب الغامض، الذي كان يفتقر لكل مقدرة على الحديث ويبدو مندهشاً ناحية كل شخص يقوم بأداء عمل يتطلب جهداً جسدياً.

كنا أحسن حالاً مع ضابط الجمارك المحلي، الشيخ محمد من مواطني الوجه الذي ظل يعمل في الحكومة ويبدو أنه معجب به، غير أنه وبعد قضاء خمسة أشهر في البرك بدأ عليه الملل لعدم مقدرته أداء أي عمل في موقع بهذه الكآبة. يقاسمه في وظيفته العاطلة هذه أدميرال الميناء (أمير البحر) الذي يبدو أن لديه القليل من العمل، ولكل منهما مجموعة موظفين من الكتبة والمساعدين ليعاونوهم على أداء أعمالهم. كانت زيارتنا لهذه القرية الرسمية الصغيرة هدية لهم من السماء، وقد كان الترحيب بنا خلال الساعة التي مكثناها بتقديم البلح المحلي والأناناس المستورد والشاي والقهوة.

وحينما حان وقت سفرنا، وذلك بعد أن تم استبدال المرشدين القادمين من القحمة بثلاثة مرشدين من بني هلال تم إحضارهم من القرية، فإن كل القرية رافقتني وأنا أسير ناحية البوابة القديمة ويبدو أنهم كانوا كارهين رحيلي. رافقتنا بعد أن تحررنا من الحشد شاة وسلّة بيض وبعض الخبز الذي صنع من الدخن، كانت هذه هي هدية الوداع من ضابط البرك.

على الرغم من أن كلاً من البرك وذهبان قد ضمتا الآن إلى محافظة القنفذة في الحجاز، إلاَّ أنهما كانتا جزءاً من المخلاف السليماني في الماضي، أيام حكم الإدريسي، الذي كان يضع ضابط الجمارك في البرك ليقوم بجمع الرسوم له. لا بد أن تكون الحدود الجنوبية للحجاز في تلك الأيام، جارية على امتداد وادي عمق، وهو حدود بني هلال، إلى مسافة ٢٠ أو ٢٥ ميلاً إلى الشمال. لقد استغرق وصولنا إلى ذلك الموقع حوالي ست ساعات، وقد نصبنا معسكرنا هناك بعد نصف ساعة من غروب الشمس لقضاء الليلة في الوادي. سار المرشدون الجدد كل الطريق على أقدامهم دون تعب وهم يمضغون البرتقال ويبصقون في الطريق. كانت مسيرة كئيبة وكذلك كان الطريق نفسه إذ إنه يقع على شريط ضيق للساحل بين الحمم البركانية المستديمة أبداً وبين البحر، نادراً ما يصل اتساع الشريط إلى الميل الواحد، وكثيراً ما يكون أقل من ذلك.

كان التغيير الوحيد لكسر رتابة المنظر هو ذيول المسايل التي عبرت طريقنا والمخاريط غير الواضحة المعالم التي تناثرت فوق ساحة الحمم البركانية الواسعة، وبعض القمم العالية أو السلاسل على مسافة إلى الوراء. كان وادي حشفة، الذي ينحدر من سلسلة عرخ، خلال رف من الشعاب المرجانية، هو أول هذه المسايل، إلى جانب وادي الصحين –وتنتشر فوقه صخور الحمم البركانية–، ووادي عرخ ووادي مجعرة ويأتيان متتابعين بعد وادي الصحين، وكلها تنحدر من سلسلة عرخ التي يسيطر عليها مخروطان على كل طرف منها مخروط واحد. لاحظنا وعلى فترات القليل من طيور الفلامنقو وهي تصطاد داخل مجرى ضيق يحفه المانجروف يتجه شمالاً لمسافة وموازياً لطريقنا، بينما وجدنا في أحد المواقع سرباً ضخماً من طيور النورس والخرشنة يطوف ويغطس داخل المجرى. أخبرني مرشديّ الهلاليون

أن الجمال البائسة في هذه المقاطعة لا تأنف من أكل أوراق المانجروف طعاماً لها إذا لم يتوافر لها ما تتغذى به على الأرض.

كان لون الماء في هذا المجرى، أو الخور كما يطلقون على هذه الألسنة، في زرقة السماء يتحرك ناحية الساحل بأمواج لطيفة. يجري داخل نهايتها الشمالية مسيل وادي العين الذي يعبر طريقنا من الناحية البعيدة لسلسلة عرخ بينما يخرج وادي ضبسة مباشرة فيما يليه إلى شريط سبخة واسع ليضيع داخل حزام المانجروف السميك. وعلى الرغم من أن الطريق يحتضن في هذا الموقع حافة الحمم البركانية مسافة إلى الخلف من البحر، فإن السير كان صعباً فوق السبخة المبتلة اللزجة التي أدركنا فيها جمال العفش وهي تلتقط خطواتها في صبر وعناء عبر المستنقع. أسرعنا ناحية مخروط منخفض من الحمم البركانية هو جبل سقا -بارز فوق الطريق- لكي نقوم بمسح البلاد المجاورة من قمته. تقع بئر غلفة عند قدمه وماؤها مالح غير أنه يمكن شربه، وحوله مجموعة من أشجار النخيل والتي فيما يليها توجد ست عشش مبنية من سعف النخل، وتكوِّن قرية حشفة الصغيرة لصيد الأسماك وتقوم فوق ربوة مزدانة بغابة المانجروف. توجد قرية كبيرة تقع على بعد ميل واحد أو أقل ناحية الشمال الشرقي، تحتوي على حوالي خمسين عشة ومساحة لا بأس بها من أشجار النخيل. هذه هي قرية أبقة وهي مشهورة بأحلى مياه في المنطقة كلها. توجد مساحات منعزلة للنخيل مبعثرة في هذه المنطقة. كان المنظر من فوق قمة سقا واسعاً ولكنه لا يثير إحساساً.

يتكون الزوج التالي من المسايل من كل من واديي شربس ووادي ضربة، وهما متقاربان ويخرجان من خليجين عميقين من الحمم البركانية، وقد رأيناهما بعد أن عبرنا طريق الشعاب المرجانية المطعم بالحمم البركانية. لحقنا في هذا الموقع

بمجموعة من الحجاج التكرونيين الأفارقة وهم ثلاثة رجال وامرأة، يضربون الطريق على الأقدام نحو مكة.

تركنا لهم بعض ما لدينا من خبز وواصلنا سيرنا فوق ساحل ضيق حتى وصلنا إلى لسان عريض من الحمم البركانية يصل إلى حافة الماء. طريق ضيق فوق هذا اللسان، غير أن النهاية القريبة منا لهذا الممر كانت مغلقة في أزمان سابقة بجدار لا تزال بقاياه يمكن ملاحظتها خلال مسافة على الجانبين. وقف كوم من الحجارة يسمى قحماً وهو يؤرخ بلا شك لمعركة قبلية طواها النسيان حول ملكية هذا الطريق السريع الاستراتيجي. كانت هنالك مجموعة من طيور البجع تستمتع بالهواء الطلق باسترخاء فوق بعض الصخور إلى البعيد على يسارنا وقد بدت جادة ومحترمة. وصلنا إلى عمود مطلي بالجبس على مسافة قليلة وراء الحمم البركانية والذي قال عنه مرشدي إنه نصب لتعليم موقع بئر أزعقة، وهي بئر قديمة يوجد ماؤها عند عمق ثلاث قامات وتقع على بعد خمسمئة ياردة داخل حقل الحمم البركانية، وقد تم حفرها لمنفعة عابري السبيل منذ سنتين.

وصلنا بعد وقت وجيز إلى وادي جية الذي ينحدر من حقل الحمم البركانية عبر حزام من حشائش، ويندفع من الجانب الآخر لطريقنا داخل حافة مانجروف ويطوق لساناً بحرياً. توجد عشة واحدة وسط مجموعة من أشجار النخيل على الجانب البعيد، ربما كانت محطة مؤقتة لبائع متجول يشتري ويبيع ضروريات الحياة للحجاج أو غيرهم من عابري السبيل. كانت العشة فارغة ولا أثر لأصحابها. غابت الشمس خلف شريط من السحب إلاَّ أننا رحبنا بأولى لمحات نخيل وادي عمق. واصلنا بنشاط سيرنا فوق أرض ذات كتل من أعشاب وحشائش فوق رمال، وهي بلا شك بداية لدلتا الوادي العريضة، ثم عبرنا بطن مجرى جاف،

ربما مجـرى مساعد للوادي. لنصل إلى المجـرى الرئيس الذي تحفه مـزارع النخيل على الجانبين. وجدنا مجموعة كبيرة من الحجاج التكارنة وقد استقروا في معسكر لهم حول نار لطيـفة عند وصولنا، ربما كانـت المجموعة القليلة العـدد التي مررنا بها، هي المتأخرة عن هذا الجمع الرئيس.

تجولنا في الوادي نبحث عن موقع ملائم لنعـسكر فيه لقضاء الليلة وتمكنا من العثور على مساحة رملية عند الطرف البعيد من النخيل على الجانب الأيمن. يوجد إلى جانب النخـيل الكثيـر من أشجار الدوم ومـجموعـات من الباليتـو المنخفض الارتفاع (حش). كان النطاق المائي لهذا الوادي قـريباً جداً من السطح الذي انتشر فيه عدد من البـرك المائية إلاَّ أن ماءها كان مالحاً. أفـادني مرشدي بأن الماء العذب يوجد على مـسافة بعد مـزارع النخيل، وقد أفـادتنا معلوماتهم هذه، بينمـا اقتنع التكرونيـون أسـفل مـن مـوقـعنا هذا بما لديهم. أزعج وصـولنـا إلى هذا الموقع مجموعة من طيور الغداف. كانت تعشعش فوق أشجار النخيل بينما وجدت طيور القطاة متـقاربة الشـرائط، التي وصلت إلى الماء بعد الشـفق كما هي عـادتها، إن مأواها المفضل قد وقع في أيدي البشر المتطفلين.

كان استقرارنا في هذا المكان سريعاً لنـتناول وجبة من البيض والخبز والشاي، في انتظار قافلة العفش، التي وصلت بعد نصف ساعة. أخبرني مرشدي أن طائرة الاستطلاع التـابعة لشركة التـعدين السعودية العـربية قد حلقت فوق السـماء إلى حدود البرك قبل فترة سبقت زيارتي، ولكنها لم تهبط.

تحركت جـمال العفش صبـاح اليوم التالي في وقت مـبكر عند الساعة السـابعة صباحاً وتخلفت ومعي المرشدون مدة سـاعة أخرى لدراسة المنطقة. ينحدر وادي عمق

عبر الحرَّة –حقل حمم بركانية– في اتجاه غربي بصفة عامة من كتلة بازلتية عالية أو كتلة شست تسمى حمران على مسافة خمسة عشر ميلاً إلى داخل اليابسة. كان منفذها من عند الحمم البركانية يبعد بحوالي ثلاثة أميال عن البحر، غير أن الحمم البركانية تكوِّن في هذا الموقع خليجاً تقف عند حافته الشمالية ربوتان هما جلا وجليلة، وتقومان بتحويل المجرى الرئيس للوادي المنتشر الآن في اتجاه جنوب شرق ماراً بمعسكرنا إلى البحر. تكوِّن هاتان الربوتان مفصلاً تتحرك فوقه الحمم البركانية إلى البعيد ناحية الشمال الشرقي وتتباعد عن طريقنا تدريجياً وبلطف ناحية أرض منخفضة تسمى حنيناً على بعد عشرة أميال أو أكثر إلى الشرق من حلي، وهي القرية التالية ذات الحجم المعتبر التي تقع على طريقنا وعلى مسافة ١٢ ميلاً إلى الشمال أو الشمال الغربي من موقعنا. لم يكن هنالك ندى أثناء الليل وكانت درجة، الحرارة الدنيا ٦٤ درجة إلاَّ أنه يوجد إحساس بالرطوبة في الهواء. كانت السماء لا تزال ملبدة بالسحب وكانت الرياح ساكنة ومختنقة على الرغم من أن الجو بدا بارداً.

استغرق خروجنا من الدلتا مدة عشر دقائق مررنا بعدها بمجرى ثالث للوادي، ومررنا فوق حقول ذات متاريس صعبة تابعة لبني هلال، الذين قاموا بزراعة هذه الأراضي بطريقة لا هدف لها. كما لم تكن لهم قرى في الوادي. تبادلت مساحات من عشب الحلفا مع مساحات من هذه المزارع كما كانت هنالك مجموعات قليلة لأشجار الدوم.

دخلنا فيما يلي حافة الدلتا إلى إقليم قبيلة السوالحة، الذي يمتد حتى وادي شفقة على بعد ٥ أو ٦ أميال فقط إلى الشمال، والذي تقع فيما يليه أراضي بني حلي. كان شريط المانجروف، بين الحمم البركانية المتراجعة وساحل البحر، والتي كان الطريق يتبعها عن قرب إلى حلي، يتداخل على أرض عامة من أودية رملية

تتبـادل الموقع مع شرائط من سبـخات حيث يدخل عـدد من خطوط الصرف من الحمم البركانيـة. كان سيرنا من حين لآخر فوق رمل ثقيل وسـهل بما فيه الكفاية فوق أرض ميتة يـكسوها عشب جاف. عبرنا منخفضـات كل من قزعات وشعب الضبرة ووادي حلفا في تتابع سريع. كان ساحل البحر مليئاً بالسرطانات، مسرعة إلى أجحارها أو إلى البحـر حين اقترابنا إلى أرض استعراضاتهـا. دخلنا فيما يلي وادي لحمان -المنخفض التالي- إلى أرض رملية ذات كثـبان شبيهة بالأمواج تسمى دقدقة، مررنا بعـدها إلى داخل دلتا وادي شفقة الذي يجري من الـشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي عبر طريقنا، وقد غطته غابة طرفاء وأراك، يتخللها نبات الحلفا وعشب الثمـام بمساحات كبيرة، خـاصة على الجانب البعيـد لمجرى السيل الرملي الضيق. لم تكن السـوالحة مأهولة بالمرة كـما لم ألاحظ أي علامـات للزراعة في منطقتهم، وكانت من أكثر المناطق التي عبرناها كآبة وبؤساً.

واصلنا سـيرنا على شـريط من أرض رمليـة إلى وادي مروان، كـان واسعـاً ويكسوه الكثير من نباتات الحلفا والطرفاء. كانت به سيارة مهجورة مدفونة بكاملها تقريبـاً في الرمال، كمـا تُوجد في أجزائه السـفلى وقريباً من البـحر بئر اكـتسب الوادي اسمه منها. أمكن رؤية وادي حلي وشريـط أشجاره الطويل الكثيف ودلتاه المنتشرة. ينتـهي حزام طوله ميلان من أشجـار صحراوية خفيـضة مع روابٍ رملية على جانبي الممر، إلى سبخة عريضة تنمو على جانبها البعيد شجيرات السواد التي تتنامى تدريجياً لتصبح غابة كثيفة للنبات ذي المنظر المؤذي. تمت إزالة مساحات من الغابة للزراعة البديلة بينما توجد هنا وهناك مـساحات من نبات الحلفا والعديد من شجيرات الشـار مع قليل من شجر الأثل الجيد النمو. توقـفت للراحة بالقرب من واحدة من هذه الروابي الرمليـة الجميلة في وسط الغابة إلى جـانب عدد قليل من

عشش بائسة بجوار مجموعة صغيرة من أشجار النخيل، ولنمنح جمال العفش التي كنا قد مررنا بها في آخر شريط للسبخة، فرصة اللحاق بنا. لقد فعلت ذلك خلال ساعة وتقدمت علينا. تحركتُ بعدهم بساعة. كان من المريح جداً الجلوس هنا في الغابة بلا عمل، وبلا شيء يلفت النظر، وذلك لأن الشجيرات كانت عالية بما فيه الكفاية لتحجب الرؤيا من كل الاتجاهات. توصلت إلى الاستنتاج بأن كل هذه الأراضي الغابية وكل ما سبقها بما في ذلك شريط السبخة يكوِّن جزءاً من الدلتا واسعة الفم لوادي حلي. واصلنا سيرنا وعبرنا أول مجرى رملي ضحل، والذي كان بداخله على يسارنا، بئر ماؤها صالح للشرب. بدأت الغابة فيما يلي هذا تختفي ببطء، بينما اتسعت منطقة الزراعة سريعاً ونحن نقترب من قرية حلي نفسها. تتابعت حقول الدخن على جانبي طريقنا مدة ٢٠ دقيقة، مع ظهور عشش مبنية من كتل الحمم البركانية من حين لآخر لإيواء المزارعين أثناء موسم العمل. دخلنا بعد هذه مباشرة إلى القرية وقررنا قضاء الليلة بها، بالرغم من أن الوقت كان مبكراً عند الساعة الرابعة مساء.

كانت كل العيون ترقب السماء من جهة الغرب بحثاً عن الهلال الجديد لشهر الحج. لقد مضى من أيام ذي القعدة تسعة وعشرون يوماً، غير أن رؤية الهلال الجديد -أو الفشل في رؤيته- سيحدد إن كان الغد هو الثلاثين من ذي القعدة أو اليوم الأول من ذي الحجة. بحثنا بلا فائدة وافترضنا أن الشهر قد أرجئ ليوم آخر، وهذا يوفر لنا يوماً إضافياً للوصول إلى مكة. غير أن المفكرة الرسمية، التي كنت قد قمت بإعداد مادتها بنفسي، تشير إلى أن اليوم التالي (١٢ فبراير) هو اليوم الأول من ذي الحجة وباحتمال الخطأ في جانب الاحتراس فقد علّمت ذلك في مفكرتي الخاصة (مع استفهام) تنبيهاً لنا بأنه سيكون تحت تصرفنا فقط ثمانية أيام أخرى. ثبت أن هذا

هو الصحيح، وذلك بالرغم من أننا لم نر الهلال في حلي، فقد شوهد في الشمال، وعليه فإن يوم الحج الفعلي، يوم عـرفات، قد تم تثبيته بيـوم السبت الموافق عشرين فبراير، وهو اليوم نفسه الذي توفي فيه رئيسي المسن (السير بيرسي كوكس) في حقل صيـد في انجلتـرا، كما عـلمت في وقت لاحق. وكانت رحلتي هذه التـي أكاد أن أنتهي منها قد استـغرقت تسعة أشهر، قد أشار إليهـا السير بيرسي كوكس في خطابه الرئاسي للجمعية الملكية الجغرافيـة بأنها أعظم عمل ينتظره مكتشفو العالم. لقد علم -على الأقل- قـبل وفاته، أنهـا قد تمت عن طـريق الشخص الذي قـام هو بنفسـه بإرساله إلى الجزيرة العربية قبل عشرين عاماً.

كان أحـد أسباب توقـفي هنا، هو إحسـاسي بالتعب الشـديد. كان كل هذا الركوب على ظهر الحمـار وقد قطعت مسافة لا تقل عن مئـتي ميل بهذه الوسيلة، مع فترات راحة قليلة خلال الأسبوعين الماضيين منذ أن هجمت الحمى عليَّ بأقصى حد ممكن لها وقد كادت أن تكسر ظهـري. أجد من الصعب على سلسلتي الفقرية أن تقوم بحملي واقـفاً. وتضغط على ظهري الذي يؤلمني بحق، وكـان الأمر أسوأ من ذلك.

لقد عـاودتني الحمى مرة أخرى. لقـد رجوت أن أترك وشأني لبـعض الراحة بعد أن أحسست بكرم وفـادة الشيخ المحلي إبراهيم وعشته الشبـيهة بخلية النحل. قدم إبراهيم لي الشاي الذي أعاد إليَّ استقراري شـيئاً ما، غير أن الحمى عادت مع غروب الشـمس بلا ألم أو أي أعراض، غير ارتفـاع طفيف للحرارة -السـاعة تلو الساعة- عبر الليل يتبعها تعرّق هادئ. شـعرت بالتأكيد بتحسن في الصباح غير أن فراشي وملابسي التي كنت أرتديها أثناء نومي قد تبللت. قمت بتغيير ملابسي كلها وأحسست أنني على أحسن حال، ولكي نغـطي ما ضاع من وقت فقد بدأنا الرحلة

عند الساعة ٧,٣٠ صباحاً، لم يكن في جوفي من الغذاء غير الشاي، لقد طلبت بعض اللبن، ولم يكن ذلك لسبب ما متوفراً. وقد أحضروا لي قحفاً من اللبن في اللحظة التي كنا نمتطي فيها الحمير، إلاَّ أنني وقفت إلى جانب كرامتي ورفضت اللبن مع تعليق ساخر على كرم وضيافة أهل القرية.

كانت قرية مخشوش -ويسمونها بصفة عامة حلي، غير أن هذا الاسم منحصر فقط بالنسبة للوادي- قرية كبيرة ذات عدد من العشش المبنية من سعف النخيل وشبيهة بخلايا النحل منتشرة فوق مساحة كبيرة وفي قسمين على جانبي مجرى السيل. يعيش مضيفي إبراهيم، وهو من قبيلة كنانة، في القسم الشمالي، وليس ببعيد من موقع البئر الرئيسة، التي تتمتع بسمعة محلية لما بها من مياه عذبة تضارع كل مياه الآبار، في الجوار لعدة أميال يعيش بنو هذيل والعناصر المتنوعة الأخرى ذات الدرجة المتدنية اجتماعياً في القسم الجنوبي، ويقع مرسى عزب أو الميناء لحلي على بعد ثلاثة أميال ناحية الجنوب الغربي من القرية، وعند فم الوادي الذي تقع فيه على مسافة ٥ أو ٦ أميال قرية منجية وتعد مهمة بما فيه الكفاية بالنسبة لضابط الدخل الحكومي للحكومة السعودية ليكون مركزه فيها. لا يوجد موظفون في مخشوش ويتمتع إبراهيم فيها بمكانة الرجل الرئيس وممثل الحكومة للقرية والميناء. رأيت في المساء أربعةً من طيور اللقلق محلقة فوق الوادي تجاه البحر وفي الصباح عبرت خمسة منها فوق القرية في الاتجاه المعاكس، غير أنني لم أر أثراً لأعشاشها في هذا الجوار. تكثر الزراعة في القسم الشمالي لهذا الوادي كما كانت كثيرة في قسمه الجنوبي وتقع في هذه المساحة قرية جلة على بعد ميل واحد أو أزيد. يمكن الإشارة إلى قرية ساحل بأنها صغيرة -وللصيادين فقط- وتبعد المسافة نفسها في اتجاه الميناء.

تُكَوِّن هذه المجموعة الصغيرة من القرى جزءاً مما يسمى حلي. لقد أشرت إلى أن الدلتا تمتد إلى موقع يبعد حوالي ثلاثة أميال أو أكثر إلى الجنوب من مخشوش. وتمتد شمالاً إلى ثلاثة أضعاف تلك المسافة حتى حدود وادي يبا. تخترق الدلتا في هذا الجانب جداول سيول عديدة داخل الوادي، وتغطي المنطقة كلها زراعة متقطعة يقوم بتمويلها عدد من القرى المبعثرة. تعزى شهرة مخشوش إلى شهرة بئرها التي جذبت المقيمين، غير أن قرية كنانة الأصلية، وتسمى حلي قديم، تقع على بعد ميلين ونصف الميل إلى الشمال منها وإلى الشرق من الطريق، بينما تقع سلب، على بعد الميل الواحد أو يزيد فيما يليها على الطريق نفسه وفوق جوار جذاب شبيه بالمنتزه. تقع قرية شيع بين حلي قديم ومخشوش إلى يسار طريقنا داخل حقول واسعة. لم تكن لوادي حلي الذي يأتي من السلاسل المرتفعة لكل من حنين ولني من خلف حقل الحمم البركانية سيول هذا الموسم، غير أن الناس يتحدثون بإعجاب حسود عن السيل العظيم الذي أصاب وادي قنونه حديثاً، كان هذا هو وادي القنفذة الذي ينحدر من الجرف الرئيس في موقع ما في بلاد ضافر وينحدر ماراً بجبل برق، وقد ذكروا كذلك أن هنالك سيولاً حدثت في الأودية إلى الشمال من ذلك.

يصعب تفسير شح وجود أشجار النخيل في حوض حلي، وتبقى الحقيقة بأن هذه الأشجار لا تكون سمة بارزة، برغم أنه توجد مجموعات مبعثرة منها. لهذا السبب فإن عشش المنطقة تبنى من الحبال التي تتوافر مادتها داخل غابة الطلح في الدلتا، وتبنى المساكن الأقل مكانة من سعف النخيل. كانت عشة إبراهيم الكبيرة مثالاً جيداً لما يمكن أن يكون عليه بناء الوتل. كان كل الداخل الدائري من الطين إلى أقدام قليلة من قمة القبة، وكانت بها فتحة تهوية صغيرة لإخراج الدخان.

يتدلى على هذا الجدار الطيني ومن مشابكها الخشبية العديد من الحصائر المصنوعة من أعواد التبن من كل الأحجام ومختلطة الألوان، والسلال، والزجاجات الفارغة، وغيرها من الأواني المنزلية، بينما توزعت سرائر خشبية خالية من المفارش والوسائد، ومصنوعة من الحبال للجلوس عليها أو للنوم فوقها. لا ينام أهل تهامة إطلاقاً على الأرض. انطبع في ذهني أن الناس الذين أراهم فقراء، ينتمون لمجتمع بائس يفتقر إلى الإحساس العربي بالكرم. أمر إبراهيم بالشاي حين وصولنا أول مرة، أو قل شراب القشر، الذي يعد من قشور ثمار البن وهو بديل لطيف للشاي، وعندما أحضره الخادم قام إبراهيم بصب ثلاثة أكواب من السائل متتابعة وقدمها لي وهو يقف بجواري وأنا أشربها، وذلك قبل أن يتقدم بذلك لبقية الضيوف، وبكوب واحد لكل واحد منهم. كان هذا تبايناً خفيفاً للتقليد في حضرموت، حيث يضعون ثلاثة أكواب من الشاي أو القهوة على الأرض أمام الضيف الرئيس قبل القيام بخدمة بقية الضيوف.

غادرت حيوانات الأحمال المعسكر قبل ساعة من انطلاقة المسيرة الجديدة، وقد قمت باستبدال المرشدين الهلاليين، مع مكافأة مقابل رفقتهم اللطيفة أكثر منها مقابل ما أدوه لي من خدمات مفيدة، ووظفت مكانهم رجالاً جدداً أحضرهم إبراهيم. كنت أظن أن الحمى ستعاودني ولكني تحسنت وأنا على ظهر الحمار، مع إهمالي لارتفاع طفيف في درجة حرارة جسمي وبعض العرق الذي صاحب ذلك. بدأت الحقول وكأنها لم تنتج محصولاً لبعض الوقت، غير أنه كانت هنالك بعض الأكرات ذات محصول دخن فقير، لاحظت بداخلها مجموعات متكررة من طيور الثرثار، وكذلك لفرحتي طائر آخر من طيور الشقراق الحبشي الذي لاحظت امتداداً متواصلاً لمداه الشمالي. لم تكن الطيور الجنوبية الحقيقية مثل

(أبو مطرقة)، والعجلة، ووقواق تهامة، وصائد ذباب الجنة والحمامة الحبشية وغيرها، كثيرة إلى الشمال من وادي بيش. كما لاحظت ثعلباً على الطريق بالقرب من قرية شيع.

عبرنا هذه ومررنا بشريط من أرض تنمو عليه غابة نبات السواد فوق أرض رملية متدحرجة شاهدنا فيما يليها عدداً قليلاً من عشش الوتل وأشجار الجوجوبا (العلب) في حالة حلي القديمة. كان هذا هو الحد الجنوبي للأرض الشبيهة بالمنتزه التي ورد ذكرها، والتي يتعرج فوقها الطريق لمسافات بعيدة تحت ظلال أشجار العلب الكبيرة، وكانت مزرعة هذه الأشجار جميلة بدرجة لم أر مثلها في الجزيرة العربية. كيف قاومت هذه الأشجار اعتداء الإنسان والماعز عليها، لا علم لي بذلك، وذلك لأن أشجار العلب هذه تزدهر في أي موقع آخر كأشجار زينة للمقابر العربية، حيث تكون عليها حماية من جانب الدين أو جانب الخرافة. لا يرفع العربي يده لينال من شجرة العلب فوق قبر لا لأجل حطبها ولا لأجل خشبها.

مررنا بقرية سلب في وسط إحدى المنتزهات هذه، وهي عبارة عن مجموعة من عشش الوتل المتناثرة، لا تزيد المجموعة الواحدة عن ٥ أو ٦ عشش وربما بلغ العدد الكلي للقرية ١٠٠ عشة أو أقل مع مجموعات قليلة من أشجار النخيل. لا بد أن يكون عرض هذا المنتزه في حدود ثلاثة أميال على امتداد الطريق وضعف هذه المسافة عبر الطريق ومعظمها على الجانب الشرقي. نستطيع رؤية السلسلة العالية، إلى البعيد ناحية الشمال الشرقي، التي تقع خلف الحمم البركانية وبها قمم كل من بكرتين وثربان، ويقال إنهما داخل أرض قبيلة حرب. ومنهما ينحدر وادي يبا الذي يقع أمامنا. تعارض شريط من صحراء ذات شجيرات خفيضة بين

أرض المتنزهات وبين حزام عرضه ميل واحد من أشجار طلح عادية وغابة سواد، وقد رأيت بداخلها زوجاً من طيور الشقراق الحبشي، ووصلنا مباشرة فيما يليها إلى بئر ضحلة عذبة المياه تسمى منزانية. وصلنا أخيراً إلى نهاية الدلتا في حزام شبه سبخي مبرقع بكتل من عشب منخفض كانت لا تزال مبللة السطح، بسبب أمطار حديثة فيما يبدو.

ارتفعنا عند حافة هذه السبخة قليلاً إلى خط يفصل بين دلتا كل من حلي ويبا، وقد ظهرت أمامنا الأشجار التي تكسو المجرى الرئيس. طار زوج من طيور الغداف من فوق شجرة نخيل منعزلة كانت بجوار الطريق أثناء مرورنا، ثم مررنا بمسطح طيني يلمع ببلورات الملح وتنتشر فيه الحشائش وخزامى البحر. كانت السبخة مستنقعية جداً في هذا المكان وقد ارتفع الطريق تبعاً لذلك إلى أرض مسطحة رملية تنمو عليها نباتات الجرم الخفيضة، كما توجد شجرتان من النخيل وكان علينا العودة إلى السطح الطيني مرة أخرى بعد أن انتهى هذا المسطح الرملي. شاهدت جمال عفشنا وهي ترعى خزامى البحر وهي تشق طريقها عبر نزور لماء أسود ملأ آثار عجلات السيارات.

أدى ظهور شجرة النخيل هنا وهناك إلى كسر رتابة المنظر الكئيب حيث تتبادل فيه الرمال الموقع مع السبخات، وتمتدان مسافة أميال إلى داخل اليابسة ثم البحر الذي يقع الآن على مسافة ميلين إلى يسارنا. جمّلت قرية سجفة المنظر، بما فيها من أشجار نخيل بائسة، إلى اليسار من موقعنا، بينما تفرع طريقنا إلى اليسار من طريق السيارات الذي عبر الوادي الرئيس في موقع أكثر ارتفاعاً من طريقنا. اخترق طريقنا غابة طلح ونحن نقترب من المجرى، كانت كثيفة في بعض أجزائها وقد أزيلت مساحات منها هنا وهناك لمحاولة الزراعة، ووصلنا فيما يليها إلى بئر وإلى

قرية دار السودة. كان يستريح هناك حاج حضرمي من حجرين حين وصولنا، ومعه خادمه، وقد توقفت أيضاً لأمنح مرشدي من حلي فرصة لالتقاط الأنفاس لأنهم كانوا مرهقين. كانوا عبيداً لإبراهيم غير أنهم لم يكونوا راضين بالسير بسرعة هذه الحمير البطيئة، كما كان حال المرشدين الهلاليين في البرك، الذين وصلوا معي إلى حلي عصر الأمس وقد أرهقوا تماماً. يجب عليَّ أن أعترف بأنه لم يكن من الضروري من جانبي أن أهتم بجانب هذه المسيرات التي أقطعها مشياً على الأقدام. كان الحضرمي ورفيقه قد سارا على الأقدام كل الطريق من ميدي، حوالي مئتي ميل، ولا يزال الطريق أمامهما طويلاً -كل هذا لأجل توفير جنيهين استرلينيين ذهبيين، بالرغم من أنهما قد سافرا بحراً من المكلا إلى ميدي، وكان بالطبع عليهما دفع أجرة ذلك. كان معظم سيرهم على الأقدام يتم ليلاً، ويرتاحان أثناء فترة حر النهار.

كانت دار السودة واحدة من مجموعة القرى الصغيرة على الحافة الجنوبية لوادي يَبَا الرئيس وهو وادٍ ضيق جداً وغير ذي أهمية كخط صرف. تتكون بقية القرى الصغيرة من دبه -٥٠٠ ياردة إلى الغرب- وحويرث -تقع إلى البعيد ناحية الشمال الشرقي- وقريات القدَّة -وهذه مجموعة من ست عشش على الجانب الأيسر للمجرى-. تسيطر هذه القرى فيما بينها على مساحة حقول كبيرة، غير أن محاصيل الدخن قد فشلت في هذه المنطقة هذا الموسم وكل ما شاهدته كان أعواداً وأكوازاً جافة وميتة.

وصلنا إلى عرجة فيما يلي المجرى، وحزام سميك من السواد والطرفاء وبعض الأثل، وهي قرية بائسة من عشش من الوتل وأعواد التبن في وسط محاصيل دخن محتضرة، كانت أبقار القرية ترعى داخلها بارتياح مع مئات من

طيور بلشون البقر المتفرج. رأيت هنا ثلاثة من طيور الشقراق الأثيوبي، مضيفة بذلك أميالاً إضافية للمدى الشمالي لها.

على الرغم من بؤس مظهر عرجة إلاَّ أنها فيما يبدو تعد عاصمة مقاطعة دلتا يَبَا، التي ينتمي ساكنوها إلى قبيلة يعلا، التي ربما كانت لها علاقة مع حرب قبيلة البدو العظيمة، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من الحصول على معلومات كثيرة حول هذا الموضوع من الشيخ محمد، الرئيس المحلي، الذي وجدته مشغولاً مع القاضي في إعداد قائمة جرد محلية للكتب القديمة، التي كان يمتلكها يماني متدين توفي حديثاً في القرية.

صدرت الأوامر بأن ممتلكات المتوفي يجب إرسالها إلى القنفذة للتخلص منها. كان الشيخ محمد لطيفاً بأن ينظر في احتياجاتي أثناء قيامه بهذا العمل، ونتيجة لذلك فقد أمكنني أن أواصل رحلتي خلال أقل من ساعة ومعي مرشدان جديدان محليان، كان أحدهما يمتلك حماراً ليركبه وكان أصلاً عازماً على القيام برحلة لأجل المتعة إلى القنفذة. كان أصدقائي المرشدون القادمون من حلي سعداء جداً بعودتهم إلى أوطانهم وقد دفعت لهم أجورهم. تقدم الشيخ محمد بقحفة ماء طلبتها منه، غير أنه لم يبذل أي مجهود آخر بدافع الضيافة والكرم، وقد عزيت ذلك للفقر المدقع إذ إنه رجل لطيف محبوب.

تقع معظم الأراضي الخصبة من عرجة وشمالاً مسافة ميلين، التابعة لدلتا يَبَا، وقد انتشرت في المنطقة الزراعية العديد من القرى الصغيرة الفقيرة، بينما تقع بلدة السوق المحلي على الطريق على بعد نصف ميل من العاصمة، ويسمى سوق الربوع (سوق الأربعاء). تقع قرى منصور وسواد وكياد، على يسار الطريق من

عرجة إلى السوق، الذي يتكون، من ساحة مربعة واسعة وبه أكشاك مستطيلة تعيسة مسقوفة بالتبن ولا توجد مساكن. تقع قرية (أبو قرين) فيما يلي مجرى سيل نحيل على يميننا، وتكون قريتا (أبو رخم وأم صرة) على اليسار.

كانت هذه هي القصة الكاملة لقرى يعلا التابعة ليبا، غير أن المساحات المزروعة التي تسيطر عليها هذه القرى الصغيرة تمتد إلى أكثر من الميل الواحد شمالاً من أم صرة ويعترضها ما لا يقل عن ستة جداول لمجرى السيل. كانت المحاصيل هنا محتضرة غير أنه توجد بعض الحقول الجيدة من الذرة والدخن وبعض مساحات السمسم، والمدهش تماماً تلك المساحات المزدهرة المتباعدة والمنقطعة للقطن وقد ظهرت أزهاره الصفراء الآن. يسمون النبات عتب ويجنون اللوزات الطازجة في موسم الحصاد بالطريقة العادية للاستخدام المحلي، غير أن النبات معمر ولا يقتلع من جذوره كما يفعلون في مصر. وقد ينمو النبات في بعض المواقع الجيدة حيث توجد طبقات من السلت والطين قريبة من مدى تأثير السيل، إلى حجم الشجرة، وينتج السنة بعد الأخرى منتجات ذات قيمة مع جهد بسيط - عبارة عن عمل حاجز صغير ليحجز الماء وربما أيضاً عمل جداول صغيرة ليجري عليها الماء حين سيلانه. كان لابد أن يكون أهل هذه المنطقة في حالة أحسن ازدهاراً عما يبدون عليها إلاَّ أنهم وبالتأكيد لا يصرفون الكثير من العمل أو المال في تحسين ظروف حياتهم المنزلية.

يجري الطريق إلى مسافة فيما يلي آخر آثار هذه الدلتا المزروعة، فوق كثيب رملي طويل متعارض يمتد إلى مسافة نصف الميل إلى اليمين والى اليسار. توقفت قليلاً فوق قمته لأطل على مباني القنفذة التي لا تزال على البعد ناحية الشمال الغربي عند حافة انبعاج غربي لشريط الساحل. تقع جزيرة صغيرة مسطحة مباشرة

إلى القرب من موقعنا وقليلاً إلى خارج الساحل، وكان بقية المنظر هو مساحة الدلتا من حولي وهي تتحلل شمالاً داخل غابة السواد التي تتخللها شرائط من شجيرات صحراوية خفيضة، وتتغلغل فيها تربة سبخية من جهة البحر. يجري في هذا القسم الشمالي ما لا يقل عن أربعة مجاري سيول، كلها ضحلة وضيقة وتعترض طريقنا في اتجاه البحر، الذي يبعد الآن مسافة ميل واحد. تقع مساحة عارية من كثبان رملية فيما يلي آخر هذه المجاري والتي قررت –وقد كادت الشمس أن تغرب– التوقف عندها لقضاء الليلة حتى نكون على درجة من النشاط والحيوية ونحن ندخل في الصباح إلى عاصمة المحافظة، التي تبعد عنا الآن بمسافة ٥ أو ٦ أميال. كان هذا قراراً جيداً وذلك لأن جمال الأمتعة لم تصل إلاَّ عند الساعة السابعة والنصف مساءً، وقد استلقيت على الرمال الدافئة الناعمة لأرتاح حتى وصولهم، وقد عاودتني الحمى مرة أخرى.

تغلبت على الحمى بالنوم، وصحوت وأنا على أحسن حال وبدأنا الرحلة الساعة السابعة والربع صباحاً فوق أمواج الكثبان الرملية، وكان مجرى السبخة موازياً لطريقنا وعلى يميننا، وبدأت الصحراء ذات الشجيرات الخفيضة فيما يلي السبخة وحتى شريط التلال. كنا مرة أخرى قريبين جداً، ونحن على حافة الانبعاج لشريط الساحل، من البحر نسير فوق رف صعب من الشعاب المرجانية التي يوجد على امتدادها وعلى حافة البحر، خط رفيع من شجر النخيل يسمى قنا ولعله واحة بائسة صغيرة مهملة بلا سكان في ما حولها من الجوار. كانت هنالك حدأة في عشها فوق واحدة من أشجار النخيل، كما كان هنالك بعض طيور الكروان فوق الخليج والمئات من طيور البحر وهي مشغولة بصيد الصباح. كان هنالك الكثير من نبات الحلفا في مزارع النخيل وعلى امتداد شريط الساحل،

كما كانت توجد مجموعة صغيرة من أشجار النخيل على يميننا ونحن ندور لنتجه مباشرة إلى القنفذة فوق الدلتا النموذجية لوادي قنونة وبه خطوط الصرف العادية تسيل إلى أسفل فوق السهل الرملي الذي تكسر هنا وهناك بمساحات من السبخة والبرك العديدة ذات المياه المالحة أو ذات مياه البحر.

عبرنا ما لا يقل عن ستة من هذه المجاري المعترضة قبل أن نصل إلى أولى حقول الدخن، وتقع قرية نسلي الصغيرة خارج الطريق وعلى يميننا. اتسع نطاق الزراعة بعد أن مررنا بقرية القاع وقد عبرنا جدولين للمجرى تفصلهما غابة طرفاء. ضربنا فيما يلي هذا على الطريق المطروق الذي يقود من القنفذة إلى نسلي مع قوافل ضخمة من الجمال والحمير وهي مقبلة ومدبرة وعليها صفائح الماء الفارغة التي تملأ من أفضل آبار المنطقة في وادي هارون، كما يسمون مجرى السيل الذي يجري ماراً بالقرية. يقود هذا الطريق السريع عبر غابة طرفاء أخرى ثم إلى مساحة واسعة لزراعة الدخن تمتد حتى حدود البلدة. مررنا بقطعان ضخمة -ونحن نسير إلى الداخل- من الجمال والضأن والماعز، متجهة ناحية مراعي الدلتا. عبرنا -أخيراً- مجرى السبخة الضيق لندخل إلى بلدة القنفذة خلال شارع متعرج من العشش.

وصلنا إلى الجبهة البحرية خلال خمس دقائق وسرعان ما ترجلنا عن الدواب عند مداخل منزل الحكومة. كان عبدالله بن مبارك -بعون الله ثم بإذن ابن سعود- أمير القنفذة، يرأس المجلس حين وصولنا، غير أنه أمر بانصراف حشد موكله وخصومه وانصرف لقضاء حاجاتنا وتلبية مطالبنا، وقد نصحه بذلك الملك عن طريق برقية وصلت إليه يوجهه إلى ذلك، مع توجيه بالإسراع لرحلتنا لأقصى حد ممكن. تطلب هذا تدبير المرشدين والمواصلات، غير أنه يوجد الوقت الكافي لهذا

كما قررت، علماً بأن الوقت كان العاشرة صباحاً عندما وصلنا، لنتمكن من قضاء بقية اليوم وكذلك الليلة هنا لنرى أكثر ما يمكننا رؤيته من هذا الموقع المهم نسبياً.

أعد منـزل لضيافـتنا أثناء ما كـنا نحتـسي القهوة مـع الحاكم ونأكل التـمر، وجدت نفـسي عند الظهر داخـل بناء إضافي من الخـشب فوق سطح أحد المـباني المبنية من الشعـاب المرجانية وهو أحد المبانـي التي تقع على امتداد الجبهـة البحرية التي هي متنزه القنـفذة، بينما شغـل رفاقي الغرف في الطابقين أسـفل مني. كان المنزل واحداً من بين العديد التي تكون الجناح الإداري والتجاري ومقر سكن الطبقة الراقية ويقع عنـد الطرف الشمالي للبلدة، وبخاصة عـلى امتداد الجبهـة البحرية، مكشوفة للرياح الشمالية الباردة القادمة من البحر الأحمر.

كان هذا الجناح كـثير الشبـه مع جدة، ولكن على مقـياس صغيـر، وكانت المنازل مبنية من بلكات شعاب مرجانية مربعـة أصغر حجماً من تلك التي تستخدم في جدة. تعرجت البلدة وانتـشرت من هذا التحصين من ناحية الشـمال واتسعت جنوباً إلى مسافة ٨٠٠ أو ٩٠٠ ياردة في مجـموعات من العشش المبنية من الوتل أو من سعف النخيل، مما يوحي بالانطبـاع بأنها قرية كبيرة غير منتظمـة أكثر منها بلدة. كانت عشش القـسم الأكثر فقراً من السكان، على ضواحي القـرية مهجورة وبائسـة بما يفوق الوصـف. وعلى عكس هذه فإن أحـسن المنازل كـانت في الحي التجاري ذات واجهات فخمـة مطلية بالجبس، وتدل على درجة عالية من الازدهار والتطور. توجد مساحة كبيرة خارج مباني الرئاسة الحكومية، تؤدي وظيفة المستودع للبضائع التجارية التي تترحل من البحر مع حاجز للماء معوج يمتد من الساحة إلى جزيرة صغيرة تنمو عليها غابة المانجروف لتلقي حماية أكثر للميناء الداخلي للبواخر الشراعـية الخفـيفة التي تقـوم بنقل مثل هذه البضـائع من بواخر ترسو بعـيداً عن

الساحل. يوجد المرسى الواسع على الجانب الجنوبي للنتوء البحري الذي تقف فوقه البلدة، والذي يمكن أن ترسو فيه مراكب الدهو والسنابك في أمان.

كان السوق في قمة نشاطه عندما مررنا به ويبدو أنه غني بالبضائع المحلية والمستوردة. يختلط هنا الحرير مع الأناناس الياباني المعلب، مع البضائع التي تباع بالقطاعي والمستوردة من مانشستر، والخردوات المستوردة من برمنجهام وشفيلد، دون ذكر شيء عن المنتجات الألمانية والإيطالية وغيرهما من البلاد الأوروبية. كانت تجارة البلدة في أيدي الهنود والحضارمة، وقد قيل لي إن هنالك حوالي ثلاثين أسرة هندية وخمسين أسرة حضرمية مقيمة في البلدة وتعتمد على التجارة. الغريب في الأمر، أنه لا يوجد أثر للإغريق ولا اليهود ولا أي عنصر أوروبي آخر، ويمثل البيوت التجارية الأوروبية القائمة في جدة مندوبون محليون لها هنا. كان بقية السكان من العرب معظمهم مقيمون جاؤوا من قرى مقاطعة وادي قنونة، وبلا شك تتخللهم عناصر من مناطق أبعد من ذلك. تكون قبيلة بني زيد حرب القبيلة الرئيسة في وادي قنونة، وهو شريان الحياة الرئيس في المقاطعة، بينما يتبع وادي لومة إلى الشمال، قبيلة بني زبيد، أيضاً يتبعون حرب.

يقع وادي غمم بين هذين الشريانين، ويتبع قبيلة الزيالة وهي تحت قسم لبني زيد، بينما يتبع وادي الأحسبة، إلى الشمال من لومة، أرض شريفان التابعة لقبيلة العبادلة، أشراف. تمد هذه الأودية بلدة القنفذة بكل ما تقوم بتصديره مقابل استيراد كل الكماليات والعديد من ضروريات الحياة، بالاسم، الأصواف والجلود والزبدة، ونوعي الدخن والسمسم. تنقل هذه البضائع بمراكب الدهو الشراعية أو بالباخرة إلى جدة، والحديدة، وعدن، حيث يتداولها تجار أكثر تأثيراً لإرسالها إلى محطات وصول أخرى. أخبرني الأمير أيضاً عن جبل يسمى شضعة في مرتفعات

ضافر إلى الشمال من القنفذة عند رأس وادي لومة، حيث توجد قرى عديدة تقوم بإنتاج البن والتين والعسل إلى جانب الدخن، ومن غير المحتمل أن ثلاث المواد الأولى تدخل السوق على مستوى تجاري.

يوجد في القنفذة ثلاثة مساجد ولا توجد بها مبانٍ أخرى عامة ذات مغزى، وكان من أبرز قاطنيها في هذا الوقت من حيث الأهمية الدينية في شمال أفريقيا هو الشيخ محمد الصادق الشنقيطي، رجل دين، لجأ إلى الجزيرة العربية أثناء الحملات الإيطالية في ليبيا وعاش بعض الوقت في مكة. وظف خطبه الدينية هناك على خطوط سياسية ضد الأوروبيين وقد دعاه الملك للحضور والبقاء في القنفذة لتجنيبه تبعات هذا الاتجاه، بصفته ضيفاً محترماً على الحكومة. كان من ضمن الحضور لمجلس الأمير الصباحي، الذي اعترضه وصولنا ولربما كان فض المجلس إذعاناً لرغبته، فإن الأمير، لفت أنظار الحضور إلى الحالة البائسة التي بدت عليها مساجد القنفذة في الأيام الأخيرة وأن الحضور لأداء الصلاة فيها كان غير كاف وأن على الناس أداء الصلاة جماعة.

وصل إلى القنفذة بحراً الفرنسيان اللذان ورد ذكرهما من قبل فيما يتعلق بجازان، وهما (إي كومبس وم. تاميزيه) قادمان من جدة في السابع عشر من فبراير ١٨٣٥م، وقد وجداها مكاناً ذا أهمية ضئيلة، تتاجر فقط مع جدة. كانت مياهها جيدة إلى حد ما، غير أن مناخها، خاصة في الشتاء، كان ثقيلاً وغير صحي، يؤدي إلى أوجاع كثيرة منها الحميات، والدسنتاريا، والأسقربوط وكانت الكوليرا منتشرة في ذلك الوقت. علق تاميزيه فيما سجله عن جدة أنها أفضل موقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وأن القنفذة هي الأسوأ. ويعزى هذا إلى الرياح الجنوبية التي تهب باستمرار. كانت المنازل من الطين وكان يطوق البلدة

سوار من الحجر. كانت هنالك حملة عسكرية يعد لهـا العدة ضد عسير أثناء فترة وصولهما، وقد غطت خيام الجيش مساحـة رملية شاسعة مسافة نصف ساعة. تم اختيار محمد باشا للقيادة وكان يتوقع وصوله يومياً، كما اختار نائب الملك المصري إبراهيم باشا، شقيقه، لقيادة الحملة ضد صنعـاء بعد انتهاء حملة عسير، وقد كان على رأس قيادة مؤقتة مع العديد من الأوروبيين الذين كانوا في خدمة الجيش على وظائف أطباء وكيميـائيين وموجهين. تم تنفيذ الإعـدام على جندي مصري هارب تم القبض عليه بجوار المعسكر متهمـاً بمحاولة الاعتداء على حياة إبراهيم باشا وقد أعدم بـواسطة الخازوق، حـيث ظل مدة ثلاثة أيام يعـاني الآلام الشديدة ويسـمع ويرى سخرية الحشد وإهاناته له. غادر المسـافران القنفذة في اليوم الثاني من مارس بعد أن أقاما بها مدة أسبوعين.

ارتفع صياح الديوك عند الفجر الذي غمته السحب عندما صحوت من نومي الساعة السادسة صـباحاً لأجد رفاقي وهم عاكفون على الإعـداد لرحيل حيوانات قافلة العفش. يصحب هذا الاحتفال بالضجيج المعتاد حول الحصول على المرشدين الضروريين وحتى إذا تم الحصـول على مرشد مناسب لمرافقتي فإنهـم يكتشفون أنه ليس له حمار يركبه ولا بد من إيجاد الحمـار. تحركت مجموعتنا في هذه الأثناء، وذهبت إلى الأمير لوداعه وقد دعاني إلى وجبـة إفطار دسمة. تحركت عند الساعة الثامنة صبـاحاً على ظهر الحمار نشق الطـريق عبر ضاحية من الـوتل تابعة للقرية تحيط بالجـانبين الشمـالي والشرقي للبلدة، لأخـرج إلى أرض رملية تنتـشر فيـها شجـيرات السواد ومـساحات من مـحاصيل خـفيضـة. كنت أسافـر فوق الطريق الأفضل من بين طريقين يقودان لليث، بينما يخترق الطريق الآخر السبخة الساحلية ويحتـضن الساحل. وصلنا إلى المجرى الرئيس لدلتـا قنونة بعد أن عبرنا مـجرى

سيل صغير فيما يـلي المساحة الصحراوية، وهي دلتا ذات بطن رملي واسع مزروع بالدخن بكثافة، وقـد بدأ المحصول يظهر فوق السطح، بعد السـيل الأخير، الذي وصل إلى البـحر في هذا المجـرى وفي غيـره من المجـاري الدلتاوية. قـابلتنا في طريقنا قوافـل منتظمة من الجمـال والحميـر وهي تحمل الماء من بئـر أم الجرم التي وصلناها بعد ٤٠ دقيقة من السير المتواصل. كانت مياهها مشهورة كمياه نسلي إلاَّ أنها أبعد. مررنا بقريتين صغيـرتين هما ربيعة ودار الوادي قبل أن نصل إلى البئر، وكانت كلتاهما تقع بالقرب من الطريق في وسط مزارع كثيفة.

تقع مجموعة من القـرى فيما يلي البئر، منها قريتا رجـبان وفقحه على يميننا ويسكنهما أناس من شمال إفريقيا وقرية سفاسف على الجانب الآخر، ولربما كانت قرية خارجية لبني زبيد. كانت كل هذه البـلاد من رمال خفيفة تصلح فقط لزراعة الدخن وتخترقهـا بعض مساحات من غابة السواد أو مساحـات من الصحراء تنمو فوقها نباتات العلقى. يجري الطريق فوق أرض رمليـة ثابتة، غير أنه يوجد ضباب غبـاري فوق الأرض وفوق التلال البـعيدة التي أصبـحت غير واضحـة. تكسرت البلاد إلى عدد من الكثـبان الرملية فيما يلي آخـر جداول وادي قنونة، وحتى هذه الكثـبان قد وصلهـا المحراث وبذر عليـها الدخن على أمـل هطول أمطار متـأخرة لإنضاج الحـبوب. حـددت سلسلة رملية مـتعارضـة الحدود بين دلتا قـنونة ودلتا الغميم. كانت الدلتا الأخيرة هذه صحراء ذات شجيرات خفيضة مع بعض أشجار الطلح المظلية الشكل وشريط مركـزي من الدخن حول قرى كل من جدعان ومنزا وآل بخيت وشعال. وتعتمـد الزراعة هنا على الأمطار وذلك لعدم وصول السيول إلى هذه المنطقة.

دخلنا إلى دلتا لومة وأرض بني زبيد فيما يلي شعال، كان الجزء الأول منها سهلاً جذاباً معشباً، تكسوه أزهار الربيع الصحراوية بما في ذلك نبات المداد ذو الأزهار البيضاء. رأينا هنا غزالة حمراء اللون شديدة بحمرة مقارنة بغزلان الصحراء وهي أشبه ما تكون بالإيل السمراء. كما كانت هنالك طيور الهدهد تبحث في التربة عن الديدان بينما كانت تشاهد كل من الحمامة الصحراوية وأبي الحناء وأصناف أخرى من القنابر. كانت طيور العوسق متوافرة أيضاً، تبحث عن الجراد، كما شاهدت طائر الشقراق الحبشي مرة ثانية في وادي الأحسبة. كان هذا هو أقصى مدى شمالي -ما عدا وادي دوقة حيث رأيت به زوجاً منها- رأيت فيه هذا الطائر، وهو بلا شك يصل نطاقه إلى وادي الليث وليس فيما يليه، لم أشاهده إطلاقاً حول جدة ومكة. أدركتُ جمال قافلة عفشنا في هذا السهل، وكانت تسير مدة أربع ساعات غطت خلالها مسافة عشرة أميال. غطيت ومرشدي المسافة نفسها في ساعتين وربع الساعة وأعتقد أن حميرنا كانت تسير بسرعة تقل عن خمسة أميال في الساعة.

لم يكن مجرى وادي لومة ولا حتى روافده المساعدة لافتاً للنظر، وذلك لأنه كان مخفياً داخل النموات الكثيفة للطرفاء التي تغطي مركز الدلتا، غير أن الوادي قد فاض وأن المساحات المزروعة فوق هذه المنطقة بدأت أكثر ازدهاراً مقارنة بحقول وادي الغميم. توجد قريتان صغيرتان في هذه المنطقة كلها، هما عبيدة وسليمة. استمرَّ السهل المعشب فيما يلي الوادي ويطلق عليه اسم مثن وينتهي في سلسلة متعارضة منخفضة يعلم حدود دلتا وادي الأحسبة. شاهدت ثعباناً ميتاً على الطريق، لا بد أن يكون قد تم قتله بواسطة أحد عابري السبيل، كما كان السهل مغطى بالجمال الراعية التابعة لبني زبيد. استمرَّ السهل لمسافة فيما يلي السلسلة،

وتحول إلى غابة طلح خفيفة تلاها حزام من سواد وطرفاء قريباً من المجرى الفعلي لوادي الأحسبة. تقع قريتان صغيرتان على مسافة ميلين إلى يسار طريقنا هما عقرة وفواز، أولاهما قرية كبيرة بشكل لافت للنظر في مثل هذه الأنحاء، والأخرى تتميز ببناء شبه القلعة لإقامة الشريف الرئيس لقبيلة العبادلة واسمه عبدالمنعم، يبلغ عرض المجرى الرئيس لوادي الأحسبة مئتي ياردة وفي وسطه بطن وادي عرضه عشرين ياردة، وبه جدول جار. يشتمل هذا الوادي على غيل جاري، غير أن ماءه الآن هو ماء السيل وكان بداخله مجموعة من الرجال والنسوة يشرفون على سقي مواشيهم.

تقع قرية ثالثة تسمى شعيرة إلى الخلف بعيداً عن الطريق، وعلى يسارنا على الجانب البعيد للوادي، ومررنا فيما يليها مباشرة إلى داخل غابة طلح كثيفة ترتفع أشجارها إلى ١٠ أو ١٢ قدماً. تمثل هذه الغابة والسهل المعشب الضيق الذي يليها مقدمة لوادي شغاض، الذي يُكَوِّن مع وادي نصيري الذي يليه مباشرة عدداً قليلاً من المجاري الصرفية، تنحدر فقط من التلال وهي جافة تماماً الآن. كانت هنالك زراعة خفيفة حول قرية الحدبة التابعة للعبابدة وكذلك حول قرية الرواشد التابعة للمحبة على وادي نصيري. يتبع قبيلة الرواشد لبني زبيد ويحتلون الوادي التالي، واسمه وادي نخوان، على بعد الميل الواحد من نصيري، توجد هناك قريتان هما عقدة وخربة على جانب المجرى وبعيداً عنه قليلاً، ينحدر هذا الوادي من سفوح شضعة إلى الخلف ويضارع في أهميته الأودية الكبيرة إلى الجنوب وكذلك مع وادي قرمة على بعد ميلين ناحية الشمال الذي ينحدر أيضاً من المناطق العالية لسفوح قرمة. يصب في هذا الوادي سيول منتظمة بالتأكيد، وظهر تأثيرها بوجود تلك المساحات الواسعة المزروعة بالقطن حول قرية عقدة إلى جانب محاصيل ممتازة

للدخن، دون ذكر شيء عن غابة القضب والطرفاء حول المجاري الفعلية، كانت في أولاها مزارع مزدهرة للذرة وبعض حقول السمسم. يقع المجرى الرئيس بين جانبين على ارتفاع عشرة أقدام من الرمال، غير أن المزارع فيما يليه أصبحت خفيفة حول قرية خربة وأفسحت المجال إلى غابة طلح خفيفة. ظهر القطن مرة أخرى فيما يلي الغابة في مزارع صغيرة جذابة حول قرية عقبين المنتشرة.

كنا لا نزال داخل أراضي الرواشد، وكان في إحدى قراها مقر الشيخ الرئيس واسمه عبدالرحمن. كان بحكم المنصب رئيساً للسوق المحلي في مظيليف – وتسمى أيضاً سوق الأحد أو سوق قرمة على اسم الوادي الذي يليها–. كان اليوم هو يوم الأحد، وعليه توقفنا قليلاً هنا لإلقاء التحية على الشيخ ولرؤية السوق إبان نشاطه. لم يكن أياً من التجربتين مبهجاً، وذلك لأن الشيخ كان يحصر في أوقات فراغه أرباحه في المبيعات التي جرت أثناء اليوم، بينما بدأ السوق يضمحل ليسمح للبائعين والمشترين بالعودة إلى قراهم الصغيرة لأداء صلاة المغرب. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً حينما وصلنا إلى هذا الموقع، ولم يبق في السوق شيء، غير قليل من الضأن ينتظر به لحظة البيع الأخيرة، غير أنني قد علمت أن الدخن بنوعيه قد عرض للبيع في السوق بمقابل ٥,٥ أصْوع للريال الواحد –أي ٤٥ رطلاً مقابل سدس من نقودنا–.

لم يصر الشيخ على بقائنا بعض الوقت ليقوم نحونا بما يمليه عليه الكرم والضيافة، وواصلنا سيرنا إلى المعسكر في وادي قرمة. مررنا بقرى شنانيع المبعثرة وتقع قرية بحرة إلى الخلف على يميننا، وفعلياً داخل الوادي أو على جانبه الأيسر. كانت هنالك حقول عديدة مزدهرة في كل هذه المنطقة مع الكثير من الذرة، وكانت بلاداً لطيفة كما يتمناها المرء. وصلنا وادي قرمة بعد غروب الشمس،

لنعسكر فوق حاجز عريض من الرمل يطل على حقل قطن كبير. لم تصل قافلة الأمتعة إلاَّ بعد ساعتين. استرحت في هذه الأثناء وقد هجمت عليَّ فورة من الحمى خفيفة، وقد تخلصت منها عند الساعة التاسعة مساءً بما فيه الكفاية لأستمتع ببعض طعام العشاء، عمدت بعد ذلك لدراسة الفلك، ولبعض القراءة. ثبت لي أن القراءة مستحيلة. لقد أحاطت مئات الحشرات بمصباحي وكان عليَّ أن أقوم بإطفائه في نهاية الأمر، لأربح نفسي من هذا الإزعاج. كانت كل مسيرتنا من القنفذة ملوثة بأسراب الذباب الصغير، ومررنا بالتجربة نفسها في اليوم التالي، غير أنها لم تكن ضارة لإنسان أو حيوان، فقط إزعاج ثانوي.

وجدت كل شيء مبتلاً في الصباح بسبب الندى، كما كان اليوم ذا سحب ومملاً، غير أن الرؤية كانت أفضل وقد تمكنت من رؤية سلسلة الجبال الرئيسة من المعسكر، قبل بداية السير، وقد بدت أكثر قرباً لنا مما سبق. لقد تمكنت من أن أضم إلى خدمتي خدمات أحد المرشدين، وذلك باستغلال مقابلتي للشيخ عبدالرحمن في مظيليف، من بين مواطني قبيلة بني زبيد المحليين (الرواشد) وقد كان أكثر علماً من مرشدي الذي رافقني من القنفذة، الذي أصبح جاهلاً بكل شيء بمجرد أن خرجنا من منطقة بلاده، لقد طردته، وقد بذلت قافلة الأمتعة جهدها لتتحرك عند الساعة الرابعة صباحاً. وقد كان رفاقي قلقين للوصول إلى مكة في الوقت المناسب للحج. وجدت علي بن أحمد ومعه الحمير في وادي قرمة ذلك الصباح، وامتطيناها عند الساعة الثامنة صباحاً وتحركنا في متابعة قافلة الأمتعة. تمكنا من إدراك قافلة الأمتعة عند الساعة الثانية ظهراً، وقد كانت تسير في اتزان مدة عشر ساعات، وأعتقد أنهم غطوا مسافة أربعة وعشرين ميلاً. استغرقت المسافة بالنسبة لي ومرشدي ست ساعات، بما في ذلك التوقفات

للملاحظات، لنغطي المسافة نفسها، وهذا يعطي حـميرنا سرعة سير تقدر بـ ٤,٥ أميال ونصف الميل في الساعـة. لقد جمعت من علي معلومات مـفيدة إلى جانب تسجيل معالم الجوار، وذلك قبل مغادرتنا للمعسكر.

إن قرمة –منبع وادي قرمة– هي كتلة صخـرية ضخمة في التلال العالية على الجانب القريب من السلسلة الرئـيسة التي يمكن رؤية خطها العام وسمـاتها البارزة بالرغم من أن عليّـاً لم يستطع تعـريف هذه السمات، غير أنـه أعطاني فكرة جيدة عن المقاطعـات القبلية التي تقع فـيها. ينتـمي الجزء الأسفل (تهـامة) من السلسلة الذي يتألف من قرمة عند طرفها الجنوبي، ونخرة عند نهايتها الشمالية، إلى جانب سمات بارزة أخرى مثل مسيلة وربعـة في الوسط، بكاملها إلى عناصر متباينة من قبـيلة زهران، التي يقع مركـزها في السلسلة الرئيسـة إلى شمال قـبيلتي بللسـمر وبللحمر.

كنت قد رأيت هذه المقاطعـات القبلية الأخيرة وهي تمتد شـمالاً من ممر شعار الذي يصعد طريقُه طريقي الـقنفذة وقحمة اللذين يلتقيـان في محايل، إلى الجرف الرئيس في الطريق إلى أبها. تزعم القبيلتان أنهما مـستقلتان عن أي قبيلة أخرى، على الرغم من أن احتمال كونهما فـرعين ثانويين لقبيلة زهران أمر وارد. إن قرمة نفسها أرض تابعة لقبيلة حرب، وتنتمي إلى بني زبيد، غير أن الدحو، وهي القمة التاليـة إلى الشمال، تتـبع لـ آل فلاح قسـم بللسمر. نجـد آل حسن (زهران) إلى الشـمال من الدحـو، وداخل المرتفعـات السفلى، عند مـسيـدة ونجد كـلاً من آل سويدي وبدين بالتـتابع على نخرة وربعـة وكلاهما تحت قـسم لبني سليم، الذين يكونون قسـماً آخر من قبـيلة زهران. لا أستطيع تعريف مـوقع شضعة بالتـحديد المؤكد، بالرغم من أنه قد أشيـر لي ناحيتها أكثر من مرة، وأعـتقد أنها تل مزدوج

القمة إلى الشمال من قرمة وقريب من السلسلة الرئيسة، إلاَّ إذا كانت قمة عالية إلى البعيد ناحية الشمال، والتي ذكر لي علي أن اسمها حضا، والتي توجد قرية كبيرة على سفحها تسمى هجرة. لا بد أن تكون هذه القرية قريبة جداً من السلسلة الرئيسة إن لم تكن كتفاً فعلياً لها.

امتطينا حميرنا، بعد أن قمنا بدراسة الجغرافيا المحلية، وسرنا عبر حقول القطن التي وجدت في بعضها خليطاً مع الذرة. تقع أرض رملية متموجة فيما يلي الحقول مع بعض المساحات للذرة، زرعت على احتمال سقوط المطر وحواجز من حين لآخر من كثبان منخفضة تعترض طريقنا. عبرنا في وسطها –وهي تمتد مسافة ثلاثة أميال شمالاً وجنوباً– منخفضاً يسمى خبت دوايا وبه انتثرت شجيرات القضب وأشجار العلب، غير أننا لم نجد أثراً لمجرى صرف، حتى وصلنا إلى ربوات لطيفة مكسوة بالعشب تمتد إلى حافة وادي دوقة الجيد الأشجار. مررنا في خبت بثقوب سراجع المائية وسط مجموعة من أشجار الطلح عند موقع يتفرع فيه طريق جانبي شمالاً من الطريق الرئيس ليقود إلى أرض بني صحاب[1] (بني زبيد) عند رأس وادي دوقة، الذي ينحدر من ممر داخل الجرف الرئيس يقود إلى مقاطعة ضافر. كان البحر مرئياً لنا على فترات إلى اليسار على مسافة تقدر بميلين، وليست قرية أبو حنش (الرواشد) الصغيرة ببعيدة منه. تقع قرية مشرف الكبيرة إلى الشمال عن فم دوقة ويسكنها آل مشيخ التابعون لبني صحاب أو على أكثر الاحتمالات فهم فروع من القسم القبلي الرئيس الذي يبدو أنه يمتلك الوادي كله. تفصل سلسلة منخفضة من الروابي أراضي القسمين، بينما يقع فيما يلي سلسلة ثنية

(١) ربما المقصود هنا بني صحاف الذين هم فرع من بني زبيد. (المراجعون).

المشابهة وادي دوقة نفسه. احتوت كل هذه البلاد على مساحات تحت الزراعة وتعتمد في ذلك على الأمطار بالرغم من أنها قد تمت زراعتها فوق أرض قد تلقت مياه السيول. لا يحرث مثل هذه المساحات إنما تعزق فقط بعمود طوله ثمانية أقدام أو ستة أقدام، ملحق به لسان ضيق من الحديد.

كانت مياه السيول لا تزال جارية في وادي دوقة على هيئة جدول ضحل عرضه عشر ياردات على امتداد الجانب الرملي الأيسر، وتوقفنا هنا قليلاً لنسمح للحمير المجهدة بالشرب ولنفحص الموقع. يحتضن المجرى الفيضي الثاني الجانب الأيمن للوادي. كان بطنه مبللاً أيضاً إلاَّ أن الماء توقف عن الانسياب فوقه، وأصبح على هيئة برك متقطعة عاطلة على امتداد مجراه. تفصل المجريين مسافة رملية عريضة ومقطعة إلى جزر بقوة السيول وتكسوها في بعض الأجزاء أشجار الطرفاء جيدة النمو.

تقع قريتا شناضرة وذوي حرض على مسافة نصف ميل مع اتجاه الوادي من موقعنا وعلى الجانبين، بينما تقع بئر حميضة المهمة على مسافة ميلين أمامنا وعلى مسافة إلى الشرق من الطريق، وهي تغذي مساحة كبيرة، إضافة إلى القطعان والأسراب، بالماء في الأوقات العادية. يتخلل حزام من بلاد شبيهة بالمروج ومعشبة حقول الدخن العفوية التي تعترض بين وادي دوقة وأرض واسعة شبيهة بالمنتزه يكسوها الأثل والطرفاء، كل هذا كان فوق منطقة الدلتا ويهيئ مرعى ضخماً لقطيع كبير من الأبقار الصغيرة ذات الظهر المحمر اللون وترافقها طيور بلشون البقر مشرفة عليها. أقام تاجر حضرمي كشكاً على جانب الطريق في وسط مجموعة من أشجار الطرفاء للاستفادة من حركة الحجاج، غير أنه لم يكن في مقره حين مررنا بالكشك وذلك لأنه، قد بقيت أيام قليلة على الحج، فإن مرور الحجاج قد

أصبح ضعيفاً. ولمحت امرأة من بين الراعيات وهي تقف محدقة أثناء مرورنا. كانت متنقبة، وكان غطاء رأسها عبارة عن مقلاة حديدية، لا بد أنها كانت تستخدمها لحلب الماشية عندما تحتاج لذلك. كشفت كل هذه البلاد عن آثار سيل حديث، ولقد لاحظنا على المجرى الضيق الذي تعترضه كثرة الأعواد والمخلفات التي حملها السيل وألقاها على الجانبين إلى مسافة معتبرة.

ارتفعنا قليلاً فيما يلي هذه الدلتا إلى سهل رملي يكسوه نبات الطفوان النجيلي وتنتشر فيه بعض أشجار الطلح. اندمج هذا مع ما بدا وكأنه مرعى سهوب ويسمى قرا بني ضهاب وهي أرض مراع عظيمة، ذات غابة من الطلح والأراك. أمكننا رؤية جزيرة جبل ملح الكبيرة إلى البعيد على يسارنا -أو جبل المساعد- ويفصلهما عن الساحل الفعلي مجرى عريض. توقفنا بعد فترة لأجل تناول وجبة الغداء فوق سلسلة متعارضة تفصل قرا بني سهب عن سهل مماثل يسمى حيثار ويكوِّن الحدود الإدارية بين محافظتي الليث والقنفذة.

تقع قرية خيارة الصغيرة على النهاية المواجهة للبحر لهذه السلسلة على بعد ميل ونصف الميل، وهي قرية للصيد ولكنها تقوم أيضاً ببعض الزراعة العفوية في وسط مراعي حيثار، والتي كانت تنتشر فيها معسكرات بائسة لبدو بلا خيام. كانت قطعان الضأن والجمال ترعى في كل مكان. تسقى هذه القطعان عادة من بئر حميضة غير أنها وجدت الماء في كل مكان هذا الموسم بين وادي دوقة وشقة اليمانية، وهو الوادي التالي ذو الحجم المعتبر الذي يقع في طريقنا. يقع خطان للصرف بيننا وبين وادي شقة اليمانية ولهما أهمية محلية. يقع أولهما عند نهاية سهل حيثار إلى الشمال ويسمى وادي أعز ويحتله بنو حسن من قبيلة الأشراف، الذين كنا قد رأينا قطعانهم ترعى في مراعي حيثار. تسيطر هذه القبيلة -بحق- على كل الساحل لمحافظة الليث

والأودية التي تخترقه. ينحدر وادي أعز من سلسلة نخرة والتي عند فحصها عن قرب بدت لي وكأنها من تكوين جرانيتي، وفي هذه الحالة، فمن المحتمل أن الجرانيت يستمر جنوباً إلى كل من مسيدة وقرامة. لم يكن الوادي نفسه سوى منخفض ضحل، تنمو عليه الشجيرات بكثافة غير أنه ليس به مجرى فيض واضح ولا يبدو عليه أنه تلقى أي مياه قريباً، سواء كان سيلاً أو أمطاراً.

تمتد إلى ما يلي هذه أراضي براري بلا سمات واضحة مكسوة بحشائش صحراوية، إلى حافة أرض مشابهة يخترقها منخفض سلم سمدان. بدت الأرض وكأنها حقل شعير ضخم وبلا شك، فهي تمهد لمراعي عظيمة خاصة في المواسم الملائمة مثل موسم هذا الربيع. تلألأت كل البلاد بلمعان اللون الأخضر المصفر، للنباتات التي تتحرك كالأمواج إلى أميال بعيدة مع لمسات خفيفة للهواء، وكانت طيور العوسق وطيور الهار الشاحبة وصقور أخرى في نشاط دائب تطارد فرائسها من جراد وفئران الصحراء وغير ذلك. لا يشتق اسم هذه الأرض الواسعة من اسم لوادٍ – لأنه لا يوجد وادٍ – ولكن من اسم غابة ضخمة للسلم، وهي واحدة من أميز سمتيها البارزتين. كانت السمة الثانية هي أرض السبخة، وتسمى سراجية تُفْتَح على الساحل من جبهة عرضها ميل واحد في مقابل جزيرة كبيرة تسمي جبل ملح وعدد من الجزر الصغيرة إلى الشمال والتي تحمي هذا الجانب من الساحل من أسوأ الطقوس. تقع قرية نخلة الصغيرة على الجانب الجنوبي من السبخة ويسكنها أناس يقومون بصناعة الملح المحلية. ينتج الملح في العديد من الأحواض الضحلة التي تبخر فيها مياه البحر. ويوجد في نخلة مركز خفر سواحل، ربما للتأكد من أن الملح لن يصدر قبل تسديد الرسوم.

وصلنا إلى أرض من كثبان رملية متدحرجة فيما يلي سلم سمدان، يغطيها نبات العلق على السفوح ونبات الثمام في المنخفضات. يتحلل هذا تدريجياً إلى سهل رملي به كتل من نبات الثمام، وقد انتشرت فيه أشجار السلم. كانت هنالك مساحة واسعة تجاه البحر إلاَّ أنها منقطعة، تروى بمياه الأمطار، وتسمى شبرا ولعلها تعلم بداية دلتا شقة اليمانية، التي وصلناها بعد الغروب بقليل، بعد أن مررنا بقرية حمرة الصغيرة عند طرف المنطقة المزروعة وقريبة جداً من البحر.

عسكرنا لقضاء الليلة، بعد أن عبرنا المجرى إلى الجانب الأيمن، بجوار بئر حمدانة، التي وقفت بجوارها عشتان لتاجر حضرمي آخر يحاول أن يزيد من دخله العادي بالاهتمام بحاجات الحجاج العابرين. كان بدوره غائباً -للأسف- ولعله في إجازة مع أسرته في الليث أو القنفذة، وترك ممتلكاته وراءه تحت عناية المحافظة. سيعود في الوقت المناسب لخدمة الحجاج العائدين بعد أداء الفريضة في خلال عشرة أيام أو قريباً من ذلك. كانت بئر حمدان، التي تبعد حوالي خمسين ياردة من الطريق، معطلة، حيث طغى عليه الركام والأوساخ التي جلبها السيل ولا علم لي إذا كان حديثاً هذا أم قديماً. كانت الليلة شنيعة للمرة الثانية بسبب أسراب الحشرات التي ربما أدت إلى الظهور المفاجئ لطائر البوم البني الذي لمحته على مدى انتشار ضوء مصباحي. كنت أسمعه ينعب طيلة الليل حتى غلبني النوم، ولعله يعشعش في الجوار.

تُكوِّن كل من شقة اليمانية وشقة الشامية معاً أرضاً تسمى الشواق. كان كلاهما شريان صرف مهم، يهبطان من جرف الحجاز الرئيس ينحدر أولهما من بلاد زهران والآخر من عند بلاد بني مالك إلى الشمال أكثر. يتباعد مجراهما عند اقترابهما من البحر مسافة ميلين، غير أن منبعيهما يتباعدان مسافة خمسين ميلاً.

تنحدر شقة اليـمانية عبر سلسلة التلال إلى الشمال من سلسلة نخـرة، بينما تمر شقة الشامية خـلال انحدارها بنتوء بريم، الذي تقع تحته أو بجـواره قرية ابن عساف وهي مركز خارجي للأشراف. تقع قرية سفسفة بالقرب من ذيل شقة اليمانية وعلى جانبها الأيمن على مسـافة نصف مـيل أسفل معـسكرنا غير أنه لا يوجـد دليل لنشاط غـير الزراعة العفـوية في هذه المنطقة. كان الوادي قد فاض حـديثاً ذلك لأن بطنه الرملي كان رطباً في بعض أجزائه وكذلك قاع الجانبين الطمويين المرتفعين إلى خمسة أقدام. يبدو أن مسار السيل الرئيس كان علـى الجانب الشاطئ الأيمن. ووقف تل جبل عمر إلى البعيد ناحية الشمال في بروز، وفيـما عدا ذلك فإن المنظر بصفة عامة كان مماثلاً لما قد شاهدناه طيلة اليـوم. لم نستطع رؤية البحر، أو جزره الخارجـية من المعسكر، غير أن الساحل لم يكن أبعد من ميل واحد.

انبـثق فجـر اليوم الخامـس من ذي الحجـة ونحن في هذا الموقع، وبقى على الحج أربعة أيـام وطريق طويل ينتظرنا أن نقطعه، غـير أن جـمال العفـش المرهقة وصلت متأخرة ليلة أمس، مما يؤكـد عدم احتمال بداية مبكرة للسفـر. تحركنا تبعاً لذلك -كلنا معاً- بعد السـاعة الثامنة صباحاً -بقليل- وسرعـان ما تقدمت ومعي علي على بقية الرفاق. كـانت البلاد فيما يلي الوادي بلاد كثبان رمليـة وبها الكثير من الأراك والتي تجول فيها طريقنا على غير هدى ولم نتـحرك بعيداً حتى اكتشفت أن أعواد الكبريت الروسية الصنع التي اشتـريتها في القنفذة أصابها بلل الندى أثناء الليل ولم تعد تشـعل غليوني. قررت تبعـاً لهذا أن أتوقف وأن أرسل علي -على وجه السـرعة- لإحـضار أعـواد الكبريت الجـافة. تجـولت في هذه الأثناء أراقب الطيـور وقد وجدت قـرية لطيـور الدرسة الأرطولونيـة، ولعلها وصلت للتـو في هجرتها وهي بين أشجـار الأراك. كانت طيور الغداف الصحراوية مـتوافرة أيضاً،

أما غير هذا فلا تبدو للمكان حياة. دخلنا فيما يلي مجرى عميقاً وضيقاً للفيضان إلى أرض النفود النظامية، ذات الكثبان العالية التي تغطيها النباتات الصحراوية ونبات زاحف يشبه نبات الغلفى الطفيلي الذي وجدناه في جنوب تهامة، تسمى هذه المقاطعة حواتم وتُكَوِّن مدخلاً لشقة الشمالية، التي وصلناها بعد أن عبرنا مسافة نصف ميل من قرية شراقية على يسارنا.

لم يكن هنالك ما يثير في شقة الشامية والتي تسمى أيضاً وادي الحواتم أو شعب الشراقية. يقع مجراها الرملي الفيضي بين جانبين من الطمي ارتفاعهما خمسة أقدام، ولم أر أثراً لسيل حديث فيه. دخلنا إلى أرض على الجانب البعيد لحقول الدخن، تنتشر فيها نباتات القطن وتمتد حتى قرية عمران الصغيرة التي تقوم مقام العاصمة لهذه المنطقة التي تتكون من حوالي اثنتي عشرة عشة بائسة متناثرة على الجانب الشرقي للطريق، وتقع بئر حشيف على بعد ميل واحد ناحية الشرق. لم يكن هنالك شيء يبرر تأخرنا هنا، وعليه فقد واصلنا سيرنا فوق أرض متدحرجة رملية، كان سير الحمير فوقها صعباً والتي تقع فيها وعلى بعد ميل واحد إلى يميننا قرية أم البساس الصغيرة أو بسيسية. كما تقع على يسارنا قرية مشابهة تسمى حديثة، كما كان علينا عبور مجرى أو مجريين وقد انتشرت حولهما مزارع دخن عشوائية، قبل أن نمر إلى داخل غابة واسعة من شجيرات السواد المنخفضة. استمرت هذه الغابة بعض المسافة، وبها مجارٍ عديدة ثانوية، تعترض طريقنا وبعض المساحات المكشوفة للزراعة على فترات زمنية مختلفة. كان كل هذا جزء من دلتا شقة الشامية المنتشرة، التي كنا قد عبرناها عند بئر قديمة مهجورة بلا اسم وقد وقف إلى جوارها متجر على جانب الطريق، فارغ كما كان حال المتاجر التي مررنا بها من قبل.

دخلنا الآن إلى منطقة تسمى خبت نجيعة، تغطي غابة السواد جزءاً منها والجزء الآخر صحراء تنمو فيها كتل من نبات الثمام. سرنا فوق ممر كالبهو عبر الغابة شقة الإنسان، وقد تكاثفت الغابة أثناء اختراقنا لها. أدى ظهور بعض الكثبان الرملية إلى تخفيف كآبة المنظر، غير أن السفر كان لطيفاً وقد هب نسيم بارد وكانت السماء خفيفة السحب. ازدادت سرعة النسيم تدريجياً وبدأ يدفع بالرمال مما أدى إلى تكوين ضباب خفيف وقد تكاثف ليحجب الرؤيا عند الظهر خاصة للأشياء البعيدة. وصلنا إلى ما يقدر عدده بست آبار في نجيعة على حافة غابة طلح صغيرة، ووقفنا قليلاً لإلقاء التحية على رجل طاعن في السن، شرس المنظر، وقد كان في صحبته امرأة طاعنة في السن، وابنته الجذابة وعمرها ثمانية عشر عاماً، يقومون بسقي أبقار أسرتهم، يصل عمق الماء إلى ثلاث قامات في آبار غير مبطنة تم حفرها عبر الرمل الطموي إلى طبقة الحصا السفلية، ويغطي فمه إطار خشبي للوقاية. كان هؤلاء القوم على الرغم من فقرهم من الأشراف، من أكثر الأسر نبلاً في الجزيرة العربية، وكانت السيدات يلبسن ثياباً فضفاضة طويلة، والتي بدت لا تتناسب مع ما يؤدينه من أعمال، إلى جانب ارتدائهن للخمار. لا يستطع المرء أن يرى منهن غير العيون.

أدركنا ونحن نسير فوق الصحراء المعشبة، وعلى مسافة فيما يلي هذه الآبار، قطعاناً قليلة من الخرفان والتيوس تقاد في اتجاه مكة لأجل شعائر الحج. كانت عظام الفك والأفخاذ لأحد الجمال الميتة تنصب في الطريق كعلامة تدل الحجاج على طريقهم. وذلك على فترات في هذه المنطقة التي تقوم فيها الرمال بإزالة معالم الطريق. يمكن للمرء أن يرى هذه العظام على بعد تلمع فيه بيضاء مع ضوء الشمس. هبط طريقنا الآن، ثم صعد، إلى خارج المنخفض الذي يبلغ عرضه

ميـلاً واحداً والذي يسمى وسقـة وفي مركزه حـزام سبخة عـريض، والذي يبدو وكأنه بطن خليج صـغير بدلاً من بطن واد، وقـد حفتـه على الجانبين مسـاحات مطعمة بشجـيرات الجرم الخفيضة. كـانت توجد فيه أيضاً مجمـوعات من أشجار التنضب، وكان من بين الطيور التي شاهدتها، البلشون وطائر الصرد وطائر الأبلق وطائر الحشنة. كما شاهدت عدداً من الصقور تحلق عالية فوق رؤوسنا في أكثر من موقع كما كانت طيور القطاة المرقطة متوافرة.

واصلت الصحراء امتدادها فيـما يلي المنخفض، وعلى يميننا شريط طويل من كثـبان رملية تجري مـوازيةً لطريقنا على امتداد السـاحل على مسافـة ميل ونصف الميل، ويبدو أنهـا تفصل السـبخة عن السـاحل. يسمى هذا القـفر خبت الحـبوة وينفصل بواسطة منخفض سبخة غليظ العريضـة عن غابة مدرج. يعترض السبخة خط صرف يجـري إلى السلسلة الرملية الساحليـة التي ورد ذكرها وينتشر شـمالاً وجنوباً على امـتداد جانبـها الأرضي الداخلي على هيـئة شريـط طويل عريض. نستطيع رؤية ظلال التلال حـول الليث إلى البعيد فيمـا يلي أرض مدرج الخضراء وعبر الضباب المتـزايد. توجد بركة مياه أمطار كبيرة في حوض السـبخة، غير أننا كنا سعداء جداً بالخـروج من منطقة غليظ إلى غابة السواد الكثيـفة التابعة لمدرج. كانت هنالك بعض المساحات العشوائيـة المعدّة لزراعة الدخن غير أن أهم سمة في هذه الأرض هي سلسلة الكثـبان الرمليـة الشبـيهـة بالنفـود التي تنحني في بعض المناطق إلى تجـاويف، تذكرني بتكوينات حـدوة الحصان في الربع الخـالي ومناطق أخرى من صحراء الجزيرة العربية الحقيقية.

لاحظنا أثناء سيرنا باستـعجال سرباً من طائر الزقزاق، أما غيـر هذا فقد كان المنظر العام لغابة السـواد مملاً ما عدا ظهور عشـة من الأعواد من حين لآخر على

حافة أرض زراعية غير قائمة. كانت الزراعة بصفة عامة فقيرة على الرغم من أنني قد شاهدت بعض حقول الدخن الجيدة. اختلفت كثافة الغابة من موقع لآخر. إلاَّ أن ممرنا قد اخترق مـواقع في الغابة ترتفع أسوارها إلى اثني عشر قـدماً وقد تعرج بداخلها، ولم يكن أمامنا ما يمكن رؤيتـه غير الطريق. وصلنا في أحد المواقع إلى عدد من الثقوب المائية ويطلق عليهـا اسم رشف في مساحة مكشوفة داخل الغابة، التي بدأت تخف فيما يلي ذلك في اتجاهها ناحية مجموعة أخرى من الثقوب المائية يطلق عليها اسم حسرة، على بعـد نصف ميل إلى يمين الطريق في منطقة مكشوفة بالقـرب من سلسلة رمليـة. يطلق الأهالي المحلـيون اسم حـمض على السـواد. استمرت الغابة في تخـفيف كثافتها إلاَّ أننا لا نزال بعيدين تمامـاً عن نهايتها، وقد أصابنا الملل برتابة السفر خلالها، لذلك قـررت أن نتوقف مدة نصف الساعة فوق ربوة رملية تظللها شجـيرة سواد ضخمة عن أشعة شـمس الظهيرة. أزعج وجودنا هنا طائر كروان كما شاهدت عدداً كـبيراً من الحمام طويل الذيل وهو يطوف حول حقـول الدخن المحتضرة لالتـقاط الحبوب السـاقطة. كما أمكننا رؤية البـحر على مسافة ميل ونصف الميل إلى الجنوب من موقعنا، بينما تقع مزارع نخيل في المناطق العليا من وادي الليث.

كان سبب توقـفنا هو التعب إلى جانب الملل من رتابة السير. لقـد كنت مرهقاً بحق، إلاَّ أن فتـرة راحة قصيـرة أعادت لي نشاطي لبذل مـجهود آخر، وقـد لحقت برفاقي عند الساعة الخامسة مساءً، الذين كانوا جادين في سيرهم للوصول إلى الليث نفسها. كانت الغابة أكثر انكشافاً الآن وكان بها الكثير من عشب الثمام وتوزع السواد فوق سطحها الرملي المتموج. كانت هنالك مساحة كبيرة مزروعة بالقطن على يميننا، كما كانت الـرمال في بعض الأجزاء مختلطة بالطمي وقد تشـبعت الأرض بآثار لمياه السيول. بدأت مساحات من مزارع الدخن تظهر على الجانبين، وكان من الواضح أن

الغـابة تمر بمرحلة تحوُّل. ينعكس هذا الـتحـول في الاسم المحلي إذ يطلق على هذا الشريط الشمالي للغابة اسم مجيشة، وقد توصلت إلى الاستنتاج في وقت لاحق أن هذه الغابة كانت جزءاً خارجياً ولكن من صـميم دلتا الليث، وتنفصل عن بقية الدلتا بحزام من كثبان رملية يكسوها نبات السواد. أدركتنا قافلة العفش في هذا الموقع عند غروب الشمس، ثم أقمنا معسكرنا بعد عشرين دقـيقة لاحقه على الجانب البعيد من الرمال فوق ربوة ينمو عليهـا نبات تباع الشمس البري[١] (أزهاره بيضاء) وتطل على بعض المساحـات المزروعة بالدخن حول ثقـوب الماء في مجابر والعـشش القليلة التي تكون القرية الصغيـرة. توجد ربوة أخرى صغيرة على يمين الطريق أمـامنا تنمو عليها أجمـة كثيفـة لنبات التنضب وتسمى تنضـبات القرامطة. يبدو أن هذه الأجـمة تعلم الطرف الفعلي لغابة مدرج وملحقها مجيـشة، وذلك لأنهما معاً يحتويان على حقول الدخن الواسعة الانتشار في منطقة الدلتا الحقـيقية. يقع الميناء البحري للّيث على بعد ميلين أو أكثر ويتميز ببـناء الجمرك الأبيض اللون، وهو يقف بارزاً عند طرفها الغربي على لسان يبرز من البحر.

ناقشنا الخطط بعـد تناولنا لعشاء اقتـصادي. تبعد الليـث عنا مسافة خـمسة أميال، ومئـة ميل عن الطريق إلى جدة، وعلى المسافة نفـسها من مكة على طريق الحاج المباشر على وادي يلملم. بقي أمامنا يومان كاملان، ولدى الضرورة، نصف يوم آخر لـتغطية هذه المـسافة، كـما نعـرف أنه لا بد لنا من أن نتأخـر في الليث للاستمتاع بضيافة الحاكم وللحصول على حيوانات مواصلات جديدة بدلاً من تلك التي أوصلتنا من القنـفذة. قـررنا أن نسلك الطريق المبـاشر إلى مكة على أسـاس القناعة التـامة بأننا مع حظ مـواتٍ لنا سنغطي المسافـة في الوقت المناسب. غطى

(١) يعرف هذا النبات محلياً بعبّاد الشمس، ولعل الاسم الصحيح هو تبّاع الشمس. (المراجعون).

ضباب رملي كثيف في ساعات الصباح كل المنطقة من حولنا، وبدأنا الرحلة الساعة الثامنة صباحاً. دخلنا المنطقة المزروعة للدلتا خلال عشر دقائق، وجرى طريقنا الواسع خلال حقول دخن متموجة كانت أكوازها قد ارتفعت إلى مستوى رؤوسنا ونحن نقود الحمير عبر الحقول. لا نستطيع إلاَّ رؤية اليسير القصير من الطريق، يحدد ذلك انحناءاته إلى مسافة مئة ياردة في كل مرة. ثم مررنا عبر قرية صغيرة، ثم ظهر أمامنا، بما لا يمكن أن يتصوره المرء من غرابة وما هو غير متوقع في مثل هذا الجوار. كانت أمامنا عربة ركاب أجرة ضخمة. كان البساط السحري أقل ترحيباً منها، وفي لحظات كنا نتبادل التحايا والأخبار مع اثنين من راكبيها: السائق ورسول عن أمير الليث. كان هذا بأمر الملك نفسه، أن ترسل إلينا السيارة من جدة لتستقبلنا، حتى نصل في الوقت المناسب للحج.

لم يستغرق نقل عفشي الضروري وقتاً كثيراً إلى جانب شخصي وسعد واثنين من رفاقنا الذين صحبوا قافلة الجمال والحمير للركوب داخل السيارة الواسعة. توقفنا بعد عشر دقائق من قيادة عبر ما لا نهاية له من حقول الدخن، عند بوابة قلعة الليث العظيمة لنتلقى التحية من الأمير نفسه عبدالله الهزاني. لم يترك كرم نجد شيئاً للمرء يتمناه، ووقعت فريسة مطاوعة لهذا الكرم مدة ٤,٥ ساعات ونصف الساعة ما عدا فترة قصيرة تجولت فيها في البلدة وجوارها. انتهت رحلتي بكل أغراضها العلمية، وستحملنا سيارة الأجرة الكبيرة إلى جدة في ثلاث ساعات بإضافة وقت أصرفه في دراسة المنطقة. لم أكن في عجلة من أمري، كما كان عليَّ أن أتأكد من الترتيبات التي تم إعدادها لرفاقي وللعفش الثقيل للتوجه مباشرة، وبأسرع فرصة إلى مكة عن الطريق المباشر، وربما كنت أسبق الأحداث إن قلت إنهم قد يصلون إلى مكة قبلي، وقد اضطروا إلى السفر القهري أثناء الليل.

كانت الليث مثبطة، ما عدا مكتب جماركها الأبيض، الذي ورد ذكره ومسطبة الإنزال (أسكلا) التي يبرز خارج الميناء الضحل والقصر العربي الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى، وكان يستخدم مقراً للرئاسة الإدارية، بالرغم من حجمها الكبير. لم يكن حول الليث سور يطوقها وكانت المنازل مبعثرة، وبنسبة متساوية من الطين وسعف النخيل، كانت المساكن الطينية من طابق واحد، بالرغم من أن هنالك عدداً منها يتكون من طابقين، أما العشش المبنية من أعواد النخيل أو حظائرها فلم يكن هنالك ما يميزها. كان القصر بناءً مربعاً جميلاً من الطين، وكانت جدرانه سميكة ويصل طول الجدار إلى خمسين ياردة من كل جانب، كما كانت عليها حصون منخفضة دائرية.

كان الجانب الداخلي للقصر مرتباً بالأسلوب النجدي، وكانت غرفة الاستقبال الكبيرة مفروشة بالسجاجيد ومؤثثة بالأرائك والوسائد حول جوانبها. كانت وجبة الغداء عظيمة مكونة من عدد من الشياه فوق أكوام الأرز وقد جلسنا أنا ورفاقي مع الأمير وموظفيه الكبار حولها. لم أقم بزيارة الميناء ولا منزل الجمارك، وهما يقعان على مسافة تزيد عن الميل الواحد من القصر، غير أنني جمعت ما أحتاج إليه من معلومات من سطح القصر.

امتلأ الشريط الرئيس لوادي تثليث الذي ينحدر من المرتفعات البركانية لحرة الصوامله على الجانب الجنوبي لجبل يلملم، وهو استمرار لبلاد الحمم البركانية التي ترتبت على جانبي طريقنا على امتداد كل الرحلة بحزام عريض من أشجار النخيل يمتد إلى ميلين ويقع على محور الشمال الشرقي – جنوب غرب. تصطدم شجيرات السواد من كل الجهات مع الوادي الفعلي بأعداد كبيرة، بينما تمتد حقول الدخن من جانب إلى آخر على الدلتا على امتداد الطريق وكان عرضها لا يقل عن خمسة

أميال. يقف المسجد الرئيس للبلدة بجوار القصر، وكان من الطين أيضاً، ولا شيء آخر يميزه.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهراً حينما قمنا بوداع الأمير ودخلنا إلى السيارة للمرحلة الأخيرة للرحلة، مررنا خارج آخر حقول الدخن، على مسافة أقل من ميل واحد من القصر، القائم على دلتا الليث، ودخلنا إلى سهل سبخي واسع تنتشر فيه كتل معشبة من الرمل جعلت الحركة فوقها صعبة أول الأمر غير أننا سرعان ما وصلنا إلى أرض ثابتة لسبخة مسطحة ناعمة والتي قاد السائق السيارة فوقها بسرعة جيدة. كان كل هذا لا يزال جزءاً من منطقة دلتا السيول، واضطررنا بعد مسافة قصيرة أن ندور حول لسان للبحر دفعته الرياح الجنوبية السائدة هذه الأيام عبر الطريق.

تقع فيما يلي هذا أرض صحراوية يكسوها نبات الثمام الذي يغطي سطحاً تتبادل فيه الرمال مع الطمي والحصى الخفيف. لمعت تلال بريمة ودبرة على يميننا من خلال الضباب، وأشار دليلي ناحية اليسار من دبرة إلى موقع بئر خضرة وهي أول محطة يعسكر فيها الحجاج القادمون من الليث. لا تزيد المسافة بين الموقعين عن خمسة عشر ميلاً، غير أن قوافل الحجاج تسير ببطء، والمهم هو التوقف عند موقع شرب ماء مناسب. كانت المحطة الثانية هي سعدية، علماً بأنه توجد بئر وُسْطى في قرية بئر ثية ويناسب أولئك الذين لديهم ما يكفي من الوقت لتغطية الرحلة. كانت المحطة الثالثة هي بيضة، وفيما يليها مرحلة واحدة إلى مكة.

كانت الرحلة من الليث إلى مكة على أربع مراحل لقوافل الحجاج، غير أن المسافر الأكثر نشاطاً يمكنه أن يغطيها في مرحلتين، وقد غطتها الجمال السريعة في يوم واحد.

يعترض طريق جدة، على مسافة ثلاثة عشر ميلاً من الليث، المجرى الرئيس الضحل لوادي غلا، الذي ينحدر من سلسلة دبرة، في مكان ما أسفل آبار غمرة وعبدلية. يمتد الوادي هنا في مسطح طيني، غير أنه توجد على يمين طريقنا بعض مزارع الذرة والدخن تابعة لسكان الليث. لحقنا هنا بالفعل بأحد الحجاج الهنود الذين كنا قد قابلناهم على الطريق، وأشار إلينا متفائلاً أن نسمح له بالركوب معنا، غير أننا لم نستجب لطلبه، أولاً لأن السيارة كانت ممتلئة بدرجة غير مريحة، وثانياً أننا سنكون متغاضين عن انتهاكنا للقانون. تواصلت التلال على يميننا فيما يلي دبرة باتصالها مع تل مرتفع يسمى نقعة، وقمتين بارزتين لرزم، والتي فيما يليها تجري سلسلة طويرف موازية للطريق على بعد ميلين. أسرعنا فوق الطريق الذي يقع بين حافة الصحراء المعشبة التي تفصلنا عن السلسلة وعن جبهة بحرية سبخية تمتد إلى البحر إلى مسافة.

ظهر الآن الرأس المزدوج لقمة السودة إلى يسار رزم، على بعد، بينما وجدنا الطريق وقد تقطع على فترات بواسطة المد العالي الذي دفعته الرياح الجنوبية. يعني هذا العديد من التحولات وأخيراً خرج الطريق من الساحل ليخترق روابي جيعرة الرملية التي تحف الوادي ودلتا وادي السعدية على الجانب الجنوبي. لقد غطينا مسافة خمسين ميلاً من الليث حينما وصلنا إلى الأرض العريضة المسطحة ذات الشجيرات التابعة لوادي السعدية ومشرب الماء الذي يسمى مجيرمة في وسطه. كان هذا المشرب مهماً ويعتقد أنه يشتمل على حوالي ستين ثقباً مائياً ذات كمية كافية من المياه إلاَّ أنها مالحة بعض الشيء وعمقها يصل إلى قامتين فقط. كان عرض الوادي عند شريط عبورنا له حوالي أربعة أميال وينتشر أكثر إلى الخارج

أثناء اقترابه من السبخة والبحر. اكتسب وادي السعدية اسمه من بئر بالاسم نفسه -سبق أن أشير إليه- مكوناً محطة للحجاج، وينحدر من سفوح جبل يلملم الذي يفصله عن وادي الليث. يكوّن الموقع السفلي من الوادي نفسه الحدود الإدارية بين محافظتي الليث وجدة.

يوجد فيما يلي ذلك وادٍ عريض معشب، جميل المنظر غير أنه يتحلل تدريجياً إلى صحراء ذات شجيرات خفيضة تسمى إيثة. سافرنا فوق هذه الأرض الصحراوية الميل تلو الآخر حتى أدركنا غروب الشمس، وقد توقفنا لفترة وجيزة لأداء الصلاة ولتناول الشاي. كانت البلاد التي تقع أمامي الآن مألوفة لديّ من رحلات سابقة من جدة ومكة، وكنت قد وصلت خلالها إلى حافة صحراء إيثة هذه. لم يكن هنالك مبرراً -بناءً على ذلك- للانتظار هنا ليوم الغد، وعليه فقد قررنا مواصلة السير ليلاً.

كان السائق على معرفة بالطريق، وكنا ننطلق على الطريق الصحراوي الرملي حتى كشفت لنا الأنوار الرئيسة للسيارة وادي السوادية المشجر المظلم أمامنا. كنت كثيراً ما أقدم إلى هنا من جدة مع مجموعات من هواة الصيد، وكنت أعلم أن بطن هذه السبخة حتى أثناء النهار وحتى في الموسم الجاف، تحتاج إلى الحذر لتحاشي حفرها العديدة. لم أكن متوقعاً ومستعداً لما قد حدث الآن.

لقد فاض وادي السوادية كغيره من أودية تهامة، وقد خلف السيل مساحات مستنقعية قبيحة فوق مجراه العريض. كانت واحدة من هذه المستنقعات تعترض الطريق. وكان يمكن الدوران حولها نهاراً، غير أن السائق وجد نفسه أمامها فجأة وقرر أن يقتحمها بسرعة وكاد أن ينجح في ذلك. غير أن السيارة توقفت، ثم

تحركت، ثم توقفت مرة أخرى وتعطلت آخر الأمر. كنا في منتصف الوحل، على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من الليث، وخمسين ميلاً من جدة، لم يكن لدينا من التجهيزات ما يسمح لقضاء ليلة في الصحراء، فضلاً عن كونها مستنقعاً، غير أنه لم يكن هنالك بديل. غير أن رفاقي نظروا للأمر من زاوية أخرى واجتهدوا برجولة أن يخرجوا السيارة من هذا الوحل، بينما جلست أنا في تكاسل أطالع الصحف التي بقيت معي من بريدي الأخير، على ضوء الأنوار الرئيسة. تم صرف النظر عند منتصف الليل عن محاولة إخراج السيارة من المستنقع، وتجمعنا كلنا في أكثر المواقع جفافاً في هذا القفر المستنقعي. ولكي يكون الأمر أكثر لطفاً، فقد هطلت أمطار قليلة أثناء الليل.

صحونا عند الفجر نستكشف موقع البلية وبدأنا العمل بلا توقف لقلع الشجيرات الصحراوية لنصنع طريقاً مرصوفاً للسيارة بهذه الشجيرات. كانت العجلات غاطسة تماماً وقد تضررت الشجيرات بضغطها وعندما كان كل شيء جاهزاً، استغل السائق السيارة وتحركت السيارة، وكأنما كانت في حاجة إلى فترة الراحة المسائية التي نالتها. كان كل شيء على ما يرام أخيراً.

ركبنا السيارة كلنا، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت قصور جدة تلمع في الضباب. كنت داخل منزلي في تمام الساعة العاشرة وسافرت عند الظهر إلى مكة.

ذهبت من هناك ظهر اليوم التالي إلى منى مع مجموعة الملك، وأديت حجتي حسب شعائر الحج. كان كل شيئ على ما يرام حتى اليوم الأخير من عطلة ثلاثة الأيام بمنى، حينما هاجمتني الحمى اللعينة وظللت طريح الفراش في بؤس داخل

خيمتي حتى وقت العصر، حينما استجمعت بعض قوتي لقيادة السيارة إلى مكة. كان انـهيـاري تاماً عندمـا وصلت إلى مكة وكنت أعـاني من خليط من الأنفلونزا والحمى، اللتين سيـطرتا عليَّ تماماً مدة أحد عشـر يوماً - نهاية غيـر طيبة لأعظم رحلاتي في الجزيرة العربية.